
أسرار الكتب
ريم
أحمد صلاح المهدي
الكنزي
ALKANZY


أسرار الكتب
ريم

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

الطبعة الثالثة
الكتاب: ريـــم
المؤلف: أحمد صلاح المهدي
تصنيف الكتاب: رواية
تصحيح لغوي: جهاد صلاح
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
رسومات داخلية: عبد الرحمن سمير
المقاس: 14 × 20
رقم الإيداع: 23594 / 2016
الترقيم الدولي: 978-977-85294-9-4

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

Alkanzy for Publishing and Distribution
+01003897918
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com



تأليف

أحمد صلاح المهدي


أسرار الكتب

إهداء

إلى جدتي: لأن حكاياتها لي وأنا صغير هي أول ما جذبني إلى تلك العوالم الخيالية السحرية.

إلى أمي: لأنها أول من حببني في القراءة، وأهدتني أول كتاب لي وأنا صغير.

إلى أبي: لأن مكتبته الصغيرة هي من جعلني أدرك أن القراءة ليست عالمًا آخر فحسب، بل عوالم متعددة بلا نهاية.

إلى إخوتي محمد وجهاد ومحمود: ودعمهم لي الذي لا ينتهي.

إلى كل أصدقائي وقرائي الأوائل: فلولا نقدهم لأعمالي لما وصلت إلى ما أنا عليه الآن.

وأخيرًا، إهداء إلى فرح ابنة أخي التي أدخلت على حياتي فرحًا وسرورًا لا ينتهي، إليكِ يا صغيرتي أهدي هذا الكتاب.


أسرار الكتب



يوم آخر كالعادة


أسرار الكتب

[١]

يوم آخر كالعادة

بمقر عمله في إحدى الشركات الكبرى، جلس سيف وهو يشعر بالملل بينما يتابع عمله على الكومبيوتر الموضوع أمامه على مكتبه، وأخذ يراقب ـ بلا مبالاة ـ الأرقام التي تتغير على شاشة الكومبيوتر المضيئة، ومن وقت لآخر كان يتثاءب وهو ينظر ناحية الساعة الخشبية المعلقة على الحائط، ليحسب الوقت المتبقي له على انتهاء دوام العمل، وبالرغم من وجود الساعة الرقمية الصغيرة بالركن الأسفل من شاشة الكومبيوتر، إلا أنه يفضل الساعة الخشبية وصوت تكّاتها الرتيب مع تحرك عقرب الثواني الذي يعطيه إحساسًا بمرور الوقت.

عادت أصابعه لتضرب أزرار لوحة المفاتيح بسرعة كبيرة اكتسبها من اعتياده على هذا العمل الرتيب، الذي يلتهم يوميًا عدة ساعات من عمره، وهذا اليوم بالذات كان يشعر بضجر شديد، فهو آخر يوم في الأسبوع، وهذا يزيد من رغبته في مغادرة العمل لكي تبدأ العطلة الأسبوعية، فيبدو أن هناك قانونًا غير مكتوب أنه كلما اقترب الشيء الذي ترغب فيه ازداد تعجلك في الحصول عليه، مع أنه لا يفعل الكثير يوم عطلته، إلا مشاهدة التلفاز أو قراءة بعض الروايات، فهو يعيش وحيدًا، ولا يقضي وقتًا طويلاً مع أصدقائه الذين اعتادوا على شخصيته المنطوية.

ألقى نظرة أخيرة على الساعة فعرف أن أمامه ربع ساعة وينتهي وقت الدوام، فقام بترتيب بعض الأوراق الموضوعة أمامه، وأغلق جهاز الكومبيوتر، وبمجرد أن دقت الساعة الثالثة غادر مكتبه وأسرع في نزول درجات السلم، فهو لا يحب المصاعد بسبب رهاب الأماكن المغلقة الذي يعانيه، حتى وصل إلى الطابق الأرضي واتجه إلى مرأب السيارات باحثًا بعينه عن سيارته محاولاً أن يتذكر المكان الذي ركنها فيه هذا الصباح، حتى لمحها من بعيد فأسرع الخطى إليها، ولمح أحد حراس المرأب يلوح له بيده مودعًا، فرد

التحية سريعًا قبل أن يدلف إلى سيارته ويدير محركها مصدرًا هديره المعتاد، قبل أن ينطلق سيف بها، مغادرًا الشركة ومخترقًا شوارع المدينة المزدحمة عائدًا إلى بيته. أخذ يسلي نفسه في الطريق بالتفكير فيما قد يتناوله على الغداء، وبما أنه يعيش وحده فلم يكن يقلق كثيرًا بشأن الغداء، ربما يتناول طعامًا من الخارج أو يقوم بإعداد وجبة خفيفة بإمكانيات طهوه المتواضعة التي لم تتحسن بالرغم من كونه يعيش وحيدًا منذ سنوات عديدة، كان ذلك اليوم بالنسبة له كما يقول دومًا لنفسه: يوم آخر كالعادة.

إلا أنه في هذا اليوم كانت هناك إصلاحات في الطريق الرئيسي، وكانت السيارات تطلق أبواقها الغاضبة، ويتبادل السائقون السباب وهم يحاولون حشر سياراتهم في الجزء الصغير المتبقي من الطريق الذي لا يكاد يسمح بمرور سيارة واحدة. لم يكن سيف من النوع الذي يمكنه أن يحتمل مثل هذا الوضع بين السائقين فقرر أن يسلك طريقًا مختلفًا للعودة إلى بيته، وكان الطريق الآخر أطول بكثير، وكان هذا يضطره إلى أن يسلك العديد من الطرق الجانبية، ولكنه أفضل بالنسبة له من أن يعلق بين السائقين الغاضبين في الطريق الرئيسي.

انتهز سيف فرصة مروره من أمام أحد مطاعم الوجبات السريعة لشراء بعض الشطائر الساخنة، كي يتناولها في طريقه الطويل إلى البيت. وعندما اقترب من بيته، لفت انتباهه وجود محل حيوانات أليفة، وبالرغم من أنه لا يبعد كثيرًا عن بيته، إلا أنه يراه للمرة الأولى، وربما لم يكن لينتبه إليه أبدًا لولا اضطراره لتغيير مساره اليومي. وراودت سيف رغبة شديدة في اقتناء حيوان أليف، لا يعرف الدافع الذي جعله يفكر في هذا الأمر، ربما هي رغبته في أن يفعل شيئًا جديدًا ومختلفًا في حياته، أو لعله كلام أصدقائه الذين يلحون عليه دومًا في الزواج قائلين له مرارًا أن الحياة وحده قد تجعله يفقد عقله، ففكر أن اقتناء حيوان أليف قد يؤنسه في وحدته، وقد بدت له الفكرة غريبة في البداية، ولكنه بعد أن قلَّبها في رأسه عدة مرات وهو متوقف أمام المحل قال لنفسه: ولم لا؟

ترجل سيف من سيارته وتوجه ناحية المحل وبمجرد أن دلف من الباب اقترب منه البائع مرحبًا وهو يقول:

- أهلا بك يا سيدي، هل ترغب في اقتناء حيوان معين؟

فقال له سيف وهو ينظر حوله:

- لا يوجد في رأسي شيء محدد، فأنا أفكر في اقتناء حيوان أليف عمومًا ولم أفكر أي حيوان سأقتني بعد.

هز البائع رأسه متفهمًا، فهو قد اعتاد على هذا النوع من الزبائن الذين غالبًا ما يتفرجون قليلاً ويرحلون، وهكذا تركه البائع يتجول في المكان، وأخذ "سيف" يسير على مهله في أرجاء المحل وهو يتأمل الحيوانات المختلفة، كانت هناك الحيوانات الأليفة المعتادة مثل الكلاب والقطط، وأقفاص الطيور، وأحواض السمك، وهنالك أيضًا حيوانات غريبة مثل الحرباء والثعابين، وحيوانات أغرب لم يرها من قبل إلا على قناة ناشيونال جيوجرافيك التي يحب متابعتها. أخذ يتجول في المكان بفضول وانبهار، فأن ترى هذه الأشياء أمامك على أرض الواقع يختلف عن رؤيتها على شاشة التلفاز الزجاجية الباردة، هنا تشعر بها تنبض بالحياة.

وبينما هو غارق في أفكاره يحاول أن يقرر ما سيشتريه، لمح من بعيد قفصًا مغطى بقطعة قماش سوداء تخفي ما بداخله. أثار ذلك فضوله فاقترب من القفص وهو يفكر فيما قد يكون بداخله! ولمَ قام البائع بتغطيته؟ تردد قليلاً قبل أن يمد يده إلى الغطاء ويرفعه ببطء، وبمجرد أن كشف الغطاء سمع صوت فحيح عاليًا ورأى

قطًا أسود قبيح المنظر يقوس ظهره وهو يفتح فمه كاشفًا عن أنيابه وهو مستمر في إطلاق فحيحه العدائي، فتراجع سيف من المفاجأة فيما جاء البائع مسرعًا على إثر سماع هذا الصوت وقام بتغطية الصندوق مرة أخرى، وبرغم ذلك استمر القط في المواء، وبدا الضيق على وجه البائع، فقال سيف مدافعًا عن نفسه:

- لقد كنت أتفقد ما بداخل هذا القفص فرفعت الغطاء، ولكن هذا القط أفزعني حقًا.

فتنهد البائع وقال:

- المعذرة يا سيدي، لهذا السبب قمت بتغطيته لأنه يفزع الزبائن.

أحس سيف بفضوله يتزايد ناحية هذا القط فقال للبائع:

- لماذا تحتفظ بهذا القط الغريب في محلك؟

تردد البائع قليلاً ثم قال:

- هذا القط عندي منذ فترة طويلة، ولا أحد يرغب في شرائه، فالكثير من الناس يتشائمون من القطط السوداء ويعتبرونها نذير شؤم؛ ولذلك أقوم بتغطية الصندوق خشية أن ينفر الزبائن من المحل.

فقال سيف متعجبًا:

- إن كان الأمر هكذا فلمَ لا تتخلص منه؟

تحاشى البائع النظر في عيني سيف وهو يقول:

- لا أستطيع التخلص منه.

أخذ سيف ينظر إلى القط الأسود باهتمام وهو يقول لنفسه: "يا له من قط وحيد مسكين، كم هو وحيد تمامًا مثلك!" وانتابه شعور بالشفقة نحوه، وخطرت على باله فكرة مجنونة، ولكنها بدت له مقبولة كلما فكر فيها أكثر، فقال بحماس:

- سأشتري أنا هذا القط.

تهللت أسارير البائع في سعادة عندما سمع ذلك، ولم يصدق أذنيه في البداية، وطلب ثمنًا زهيدًا مقابل القط، وأعطاه القفص الخاص بالقط هدية، واشترى سيف بعض معلبات طعام القطط من المحل أيضًا، ثم توجه ناحية سيارته ووضع القفص في الكرسي المجاور لكرسي السائق، فيما جلس هو أمام مقود السيارة وأدارها منطلقًا ناحية بيته مرة أخرى. ولم يمض وقت طويل حتى وصل سيف إلى بيته، فركن السيارة في المرأب الملحق بالبيت، وحمل القفص

متوجهًا ناحية الباب الأمامي، ثم دلف إلى البيت وضغط على مفاتيح الإضاءة بعد أن وضع القفص على الأرض وأخرج القط وهو يقول له:

- أتمنى أن تعتاد على البيت سريعًا فمنذ هذا اليوم أصبح هذا المكان هو بيتك.

لم يبدِ القط أية ردة فعل سوى أن خرج من القفص بخطوات بطيئة ثم أخذ ينظر لسيف بجمود، فارتبك الأخير قليلاً ولم يدر ماذا يفعل، إنها تجربته الأولى في أن يربي حيوانًا أليفًا فقال له:

- لا شك أنك جائع سأغير ملابسي وأجهز لك شيئًا لتأكله.

ترك سيف القط وصعد إلى الطابق الثاني، حيث تقع غرفة نومه، ليبدل ملابسه ويريح جسده المرهق قليلاً، وأثناء تبديله لملابسه لمح سيف في المرآة القط وهو يدلف إلى الغرفة، قبل أن يتوقف وينظر إليه بنظرات ثابتة، أحس سيف برجفة تسري في جسده من نظرات القط الباردة، فالتفت مقتربًا منه وحاول أن يداعبه ليهدئ من توتره وهو يقول لنفسه:

- لا تقلق إنه قط أليف عادي.

ولكن بمجرد أن اقتربت يده من القط وجد أنه يقوس ظهره ويكشر عن أنيابه وهو يصدر صوت فحيح القطط المشهور، فأبعد سيف يده بسرعة وقال بتوتر:

- لا مشكلة فهو أول يوم لنا سويًا، سنعتاد على بعضنا بعد قليل.

ثم توجه ناحية المطبخ والقط يتبعه بخطى ثابتة، وأخرج طبقًا بلاستيكيًا صغيرًا وفتح علبة من علب طعام القطط وأفرغها في الطبق البلاستيكي ووضعها أمام القط وهو يقول له:

- قط لطيف.

*****

في غرفة نومه، استلقى سيف على السرير، وهو ممسك بإحدى الروايات التي بدأ فيها منذ عدة أيام ولم ينهها بعد، كان على وشك النوم وأراد أن ينهي فصلاً أو فصلين من الرواية قبل أن ينام، أخذ يقلب الصفحات في ملل وهو يتثاءب ويسأل نفسه إن كان عليه تركها واختيار رواية أخرى، في تلك اللحظة دخل القط الغرفة

وهو يموء، فحاول سيف أن يتجاهله ويستمر في القراءة ولكن نظرات القط الباردة ناحيته أشعرته بالتوتر، فوضع الرواية جانبًا وقام من موضعه وأخرج القط خارج الغرفة وأغلق الباب، وعاد لإكمال الرواية، ولكنه لم يستطع أن يركز فيها بسبب قيام القط بخمش الباب وهو يموء باستمرار، فتنهد وهو يقول لنفسه:

- يبدو أن هذا القط ودود أكثر من اللازم.

فعاد وفتح الباب وحمل القط ووضعه على السرير وهو يقول له:

- أتمنى أن تكون مستريحًا هكذا.

لم يستطع سيف التركيز في الرواية بعد ذلك فأخذ يتأمل القط وهو يمط جسده ويفتح فمه في تثاؤب ويدور حول نفسه عدة دورات قبل أن يضع رأسه بين قدميه الأماميتين، وأخذ سيف يتأمله وهو يفكر فيما حدث اليوم، قبل أن ينسحب وعيه بهدوء ويغرق في النوم بدوره.

استيقظ سيف في صباح اليوم الثاني وهو يشعر بأنفاس ساخنة تلفح وجهه، ففتح عينيه ليجد القط الأسود بجوار رأسه وهو ينظر ناحيته، فاعتدل سيف في فزع قبل أن يتذكر أنه قد اشترى القط

بالأمس، فقال لنفسه:

- سيأخذ الأمر وقتًا حتى أعتاد على وجود القط بالبيت.

توجه إلى الحمام ليأخذ حمامًا ساخنًا سريعًا، ثم بعد ذلك توجه إلى المطبخ لإعداد الفطور الذي لا يختلف كثيرًا عن فطور كل يوم بالنسبة له، وهو يتكون بشكل أساسي من البيض والجبن وكوب ساخن من اللبن، ولكنه هذه المرة وضع بعض اللبن في طبق صغير للقط الذي أخذ يلعق الطبق في رضا.

كان اليوم هو العطلة الأسبوعية من العمل، لذلك لم يكن على سيف الذهاب إلى العمل في هذا اليوم، فقضى وقته في غسل الأطباق والملابس، وتهذيب حشائش الحديقة، وغيرها من المهام التي يجب عليه فعلها كرجل أعزب يعيش وحده، وكان عليه في الوقت نفسه تجاهل نظرات القط الذي يلاحقه في كل مكان، وهي المهمة الأصعب.

في نهاية اليوم عند حلول المساء، تناول سيف الغداء ثم استلقى على الأريكة أمام التلفاز ليتابع الأخبار قليلاً، ثم أخذ يقلب بين القنوات بحثًا عن شيء مسلٍ ليشاهده، وفي تلك الأثناء كان القط

جالسًا أمام التلفاز بصحبته، وقد تعلق نظره بشاشة التلفاز، ولكن يبدو أن الأمر أصابه بالضجر فتثاءب ووضع رأسه بين قدميه، فأحس سيف أن القط قد غط في النوم، وتذكر حينها أن عليه إنهاء بعض المهام المتأخرة الخاصة بعمله، فصعد إلى غرفته في الطابق الثاني، وأغلق الباب وراءه، وجلس على الكومبيوتر وانهمك في عمله، وبعد مرور بعض الوقت الذي لم يحسب مدته، انتبه سيف فجأة على صوت مواء وخمش أظافر على الباب، فتجاهل سيف الصوت محاولاً التركيز في عمله، ولكنه أحس أن مواء القط يخرجه عن شعوره، فصاح في غضب:

- فلتموء كما يحلو لك، فلن أفتح لك الباب هذه المرة.

استمر الخمش والمواء فترة من الوقت قبل أن يتوقف، ويسود الصمت في المكان، فتنهد سيف في ارتياح، وعاد للانهماك في عمله، وبعد مرور فترة من الصمت حاول سيف أن يعود إلى عمله، قبل أن يسمع صوت حفيف قادم من جهة النافذة، فنظر ناحيتها ثم انتفض واقفًا، من على كرسيه وهو يشاهد القط الأسود واقفًا على النافذة وهو ينظر إليه بنظراته الباردة ومن ورائه يتسلل ضوء القمر.

كان هذا أكثر من قدرة سيف على الاحتمال، وتيقن أن هذا القط ليس طبيعيًا على الإطلاق، فاتخذ قرارًا أن يعيد القط إلى المحل الذي اشتراه منه مرة أخرى.

وفي دقائق قليلة قام بتغيير ملابسه، وحمل القط ـ الذي أخذ يموء ويخمشه في يده ـ ووضعه في قفصه وخرج من البيت، ولأن المحل قريب من بيته؛ فكر أنه من الأفضل ألا يخرج السيارة من المرأب، فقطع المسافة من بيته إلى المحل مشيًا، حتى لمح المحل من بعيد ورأى البائع يتهيأ لإغلاق المحل، فتزايدت سرعة خطواته وصاح في البائع:

- مهلاً!

التفت البائع إلى سيف فرآه يحمل القط فقطب جبينه وسأله بنبرة متحفزة:

- هل يمكنني خدمتك في شيء؟

فقال سيف في نفاد صبر:

- أريد إعادة هذا القط.

فهز البائع رأسه نافيًا بحزم:

- آسف يا سيدي، لا يوجد إرجاع أو استبدال هذه هي سياسة المحل.

بدا الضيق على وجه سيف، وحاول كثيرًا مع البائع ولكنه بدا مصممًا للغاية، وحتى عرض سيف أن يعيده دون أن يسترد شيئًا من أمواله لاقى رفضًا من البائع، فزفر سيف في ضيق، وسار مبتعدًا عن المحل في طريقه إلى بيته.

كان الليل قد حل والشوارع مظلمة إلا من إضاءة الأعمدة الخفيفة التي تصنع ظلالاً أكثر منها ضوءًا، فسار سيف في الشوارع الهادئة دون أن يلتفت إلى العدد القليل من المارة الذين يلتقي بهم بين الفينة والأخرى فينظرون ناحيته بتعجب وهو يحمل قفص القط، وبمرور الوقت قلّ عدد الأقدام التي تسير في الشوارع حتى وجد سيف نفسه وحيدًا، فخطرت على باله فكرة غريبة، ولكنه استحسن الفكرة للغاية وقال لنفسه:

- ولم لا؟

تلفت حوله كي يتأكد أن أحدًا لا يراه، ثم انعطف في أحد الشوارع الجانبية، وفتح القفص وقال للقط:

- اذهب.

خرج القط من القفص وابتعد عدة خطوات ثم نظر ناحية سيف فلوح له بيده مهددًا وهو يقول:

- اذهب ولا تعد مرة أخرى.

لم يبدُ على القط أنه فهم كلام سيف أو تأثر به واستمر ينظر نحوه بجمود وهو ثابت مكانه، فابتعد سيف عنه وهو ينظر خلفه ليتأكد أن القط لا يلحقه، ثم أسرع في مشيه نحو البيت، وهو ينظر من وراء كتفه كل بضعة خطوات، حتى وصل إلى البيت، وصعد إلى الطابق الثاني وألقي بجسده على السرير وهو يشعر بالإنهاك ولم يأخذ وقتًا طويلاً حتى غرق في النوم.


أسرار الكتب


سر القط الأسود


أسرار الكتب

[٢]

سر القط الأسود

أخذ سيف يركض في شارع ضيق، وهو يشعر أن أنفاسه ثقيلة، وخطواته بطيئة بالرغم من محاولاته المستميتة للركض، ووراءه يركض القط الأسود وقد تضاعف حجمه عشرات المرات، فأصبح حجمه أكبر من سيف، وهو يطارده في هذا الشارع ويموء بصوت عالٍ، وفجأة أخذت عيون القط تكبر بسرعة حتى ابتلعت سيف، وأحس أنه يسقط فيهما، فأخذ يصرخ وهو يشعر أن صوته مكتوم، وفجأة استيقظ من النوم وهو يشعر أنه لا يستطيع التنفس، ولصدمته وجد القط الأسود جاثمًا على وجهه وهو يغطيه بفرائه الأسود الكثيف، وبدا شكله مخيفًا في الضوء الخافت القادم من

النافذة فصرخ سيف بهلع، وحاول أن يبعد القط عن وجهه بيده، ولكن القط كان متشبثًا بوجه سيف بمخالبه فجذبه بقوة أدت لإحداث جروح كثيرة في وجهه، قبل أن يقذف القط في ركن الغرفة، فأخذ يموء بصوت متألم غاضب عند ارتطامه بالأرض، بينما سيف يشعر بألم حارق في وجهه فجلس ساكنًا بضع لحظات ليستجمع أنفاسه قبل أن يفكر:

- كيف جاء هذا القط إلى هنا!

هناك شيء ما ليس طبيعيًا على الإطلاق بشأن هذا القط، وفكَّر سيف حينها أن صاحب المحل بدا سعيدًا بالتخلص منه، وشعر بداخله أن هناك سرًا ما يحيط بهذا القط يدركه هذا البائع ولم يخبره به، كان يفكر في هذا وهو ينظر إلى القط الذي جلس في ركن الغرفة يلعق يده بلسانه وهو ينظر ببرود ناحية سيف الذي بادله النظرات بكراهية وهو يقول لنفسه:

- ما هذه اللعنة التي جلبتها إلى حياتي.

أطار ما حدث النوم من عيني سيف، الذي أخذ ينظر نحو النافذة ويتأمل الضوء الباهت القادم منها الذي يشي باقتراب وقت الفجر،

فحسم قراره بأن يذهب مرة أخرى لصاحب المحل ويعرف منه سر القط بأي ثمن، وهكذا انطلق مسرعًا إلى الحمام الملحق بغرفته ووضع بعض الشرائط الطبية اللاصقة فوق الجروح التي سببتها مخالب القط في وجهه، وراودته فكرة أن يعد لنفسه إفطارًا إلا أنه لم يشعر بشهية حقيقية فاكتفى بكوب ساخن من القهوة ليعيد له تركيزه.

وعندما لاحظ تسلل أول شعاع للشمس من نافذته، قام بتغيير ملابسه وهبط إلى الطابق السفلي، وتذكر حينها أنه قد ترك قفص القط في الشارع، فوضعه في صندوق خشبي، وسمعه يخمش جدار الصندوق الداخلي في غضب، فتجاهله وهو يتوجه ناحية سيارته، ووضع الصندوق الخشبي على الكرسي المجاور، وشق هدير محرك سيارته سكون الصباح وهو يخترق شوارع المدينة الهادئة، ومضت دقائق قليلة حتى وصل إلى المحل فوجده مغلقًا، نظر سيف في ساعته فوجدها لم تتجاوز السادسة بعد، لقد أتى مبكرًا جدًا وعليه الآن أن ينتظر.

تشاغل سيف بتأمل الشارع خارج نافذة سيارته فرأى الضباب الخفيف يغلف كل شيء، وأخذ ندى الصباح يتكاثف ببطء على

أوراق الشجيرات الصغيرة التي تزين الشارع، كما تكاثف أيضًا على زجاج سيارته، واستمر القط بخمش الصندوق والمواء محتجًا في غضب، كان الانتظار مع صوت صرير مخالب القط على جدران الصندوق مع الجو الضبابي يدفع أعصابه إلى حافتها فقال حانقًا:

- اصمت عليك اللعنة.

مرت الدقائق عليه كأنها ساعات وهو يتمنى أن ينتهي الأمر في أسرع وقت، ومن آنٍ لآخر كان ينظر إلى ساعته ليحسب كم مضى عليه وهو ينتظر البائع، وبعد ما يقرب من ساعة رأى البائع يقترب من المحل في خطوات رتيبة، وراقبه سيف من سيارته الواقفة على مرمى بضعة أمتار من المحل وهو يفتح الباب الحديدي الضخم مصدرًا ضوضاء عالية تردد صخبها في هدوء الصباح، ثم دلف البائع إلى المحل فترجل سيف من سيارته وأحكم إغلاقها، وترك صندوق القط الخشبي بالسيارة وتوجه ناحية المحل بمفرده.

ميز البائع صوت سيف وهو يقول له:

- صباح الخير.

فالتفت للوراء بحركة حادة وهو ينوي طرده مرة أخرى، إلا أن

ملامح سيف التي أجهدها السهر والتفكير، وموضع الجروح ومنظر الشرائط الطبية اللاصقة، أصابت البائع بالارتباك فقال في توتر:

- أنت مرة أخرى؟ أخبرتك أنه لا يوجد إرجاع أو استبدال ...

كانت الحوادث الأخيرة مع قلة النوم وكثرة التفكير تدفع سيف للجنون، مما جعله يفقد أعصابه، فمال على البائع بشكل مخيف وغاضب وهو يمسكه من ملابسه:

- اسمع، لقد حاولت بالأمس التخلص من هذا القط اللعين ولكنه عاد إلى مرة أخرى بشكل ما وحاول قتلي، واليوم سأعيده لك بأي ثمن.

بدا الخوف على ملامح البائع الذي رأى أن سيف غير متزن على الإطلاق، وقد يدفعه ذلك لارتكاب أي حماقة، فحاول البائع أن يتملص من قبضته وهو يقول مدافعًا عن نفسه:

- أرجوك لا أريد استعادته، هذا القط كاد يفقدني أعصابي أيضًا، وحتى لو أخذته منك فمن أدراك أنه لن يعود إليك مرة أخرى، أنا لم أبع لك القط عامدًا وأنت من اختاره، إنه ليس ذنبي.

هدأ سيف قليلاً مفكرًا في كلام البائع ثم قال له:

- هناك سر يحيط بهذا القط، وأنا أشعر أنك تعرف شيئًا، فلم لا تخبرني بكل ما تعرفه؟

قال البائع متوسلاً:

- أقسم لك يا سيدي أنني لا أعرف عما تتحدث، فقد اشتريت هذا القط بثمن زهيد ولكنني لم أستطع بيعه، فكل من يراه ينفر منه، وحتى عندما حاولت التخلص منه عدة مرات فإنه يستمر بالعودة مرة أخرى، هناك شيء لعين في هذا القط ولكني لا أعرف ما هو!

ترك سيف ملابس البائع وهو يفكر كأنه يكلم نفسه:

- إذًا هذا حقيقي ولا أتخيل الأمر.

ولكن كلام البائع زاد من حيرته وازداد أمر القط غموضًا، فالتفت إلى البائع بحدة فرفع يديه أمام وجهه مدافعًا عن نفسه، ولكن سيف قال له:

- أريدك أن تخبرني من أين حصلت على هذا القط منذ البداية.

فقال له البائع الذي بدا على ملامحه التفكير:

- أتذكر ذلك اليوم المشئوم الذي اشتريت فيه القط، كان يومًا يبدو عاديًا وكنت أدبر شؤوني الخاصة عندما دخلت عليّ طفلة صغيرة، وهي تحمل بيدها هذا القط وتعرض عليّ شراءه بسعر زهيد، وقد بدا عليها الحزن وهي تبيعه، وقالت إن القط عزيز عليها جدًا وأنها تبيعه لحاجتها إلى المال، كنت مترددًا في البداية في شراء القط، ولكن ثمنه البخس هو ما دفعني لشرائه وأيضًا رغبة الفتاة الشديدة في بيعه، فنقدتها ثمنه ولم أرها منذ ذلك اليوم.

فكر سيف في نفسه أن هذا طرف خيط جيد، ثم سأل البائع:

- هل تعرف عنها أي شيء؟ اسمها؟ عنوانها؟ أي معلومات قد تدلني عليها؟

هز البائع رأسه بأسف وهو يقول:

- للأسف هذه هي المرة الوحيدة التي رأيتها فيها.

زفر سيف في ضيق ثم قال للبائع متسائلاً:

- ألا تذكر ماذا كانت ترتدي في ذلك اليوم؟

فكَّر البائع قليلاً ثم قال:

- كانت ترتدي فستانًا أبيض، ويبدو عليها رقة الحال.

وضع سيف يده على جبهته وهو يفكر قائلاً:

- إنها فتاة صغيرة ولا شك أنها تسكن قريبًا من هنا، ربما أستطيع أن أسأل عليها في الجوار.

فقال البائع في لهفة:

- نعم فكرة رائعة.

أراد البائع أن يتخلص من سيف وكان سيتحمس لأي فكرة تبعده عن محله، فقال وقد خطرت على باله فكرة أخرى:

- أو ربما يمكنك السؤال عنها في السوق فقد بدا عليها الفقر ورقة الحال، والناس هناك في السوق بسطاء ويعرفون بعضهم، ربما يمكنك أن تبدأ بحثك من هناك.

فقال سيف غير مدرك خطط البائع لإبعاده عن المحل:

- نعم فكرة جيدة ربما أفعل ذلك.

ثم أسرع الخطى نحو باب المحل وتمنى له البائع حظًا جيدًا وتبعه بنظره حتى خرج من المحل قبل أن يزفر بقوة وهو يقول:

- يا لها من بداية لهذا اليوم.

*****

عاد سيف إلى سيارته ونظر ناحية الصندوق فسمع صوت القط يخمش ويموء كعادته، فتجاهله وهو يدير محرك السيارة لتهدر في الصباح مرة أخرى، وأخذ يخترق الشوارع وسط الضباب والندى، وهو يشعر ببرودة خفيفة محببة للنفس، كان الطريق هادئًا ولا يوجد الكثير من السيارات أو المارة، وأخذ يفكر في مسعاه والبحث عن الفتاة الصغيرة، هل يسأل الناس إن كانوا قد رأوا فتاة صغيرة في فستان أبيض تحمل قطًا أسود؟ بدت له الفكرة سخيفة ولكن لا يوجد أمامه طريق آخر.

أخذت الأفكار تدور في عقله، من تكون هذه الفتاة؟ وما سر هذا القط الأسود؟ ما الذي يحدث حوله؟ لم ينتزعه من أفكاره إلا وصوله إلى السوق الذي يقع بأطراف المدينة، تردد سيف قليلاً وهو جالس في سيارته متخيلاً نفسه يسأل عن طفلة صغيرة وقطٍ أسود، إلا أنه

قال لنفسه: لو أن هناك مكان يمكنه أن يحصل منه على معلومات فهو السوق؛ فالباعة يعرفون بعضهم، كما أنهم يحتكون مع أغلب سكان المدينة، بالتأكيد سيصل إلى شيءٍ ما، قال هذا الكلام لنفسه ليبث فيها شيئًا من الطمأنينة يدفع بها القلق الذي يعصف بذهنه.

أخرج القط من صندوقه، والذي لسبب ما بدا هادئًا ولم يحاول نشب مخالبه في يد سيف كعادته، فتعجب سيف من سكونه وقال له:

- أي سر تحمله أيها الشيطان؟

ثم ترجل من السيارة وأحكم إغلاق الأبواب، وحمل القط في يده وهو يتأمل السوق ويفكر في بداية رحلة بحثه، كان الوقت ما يزال مبكرًا والسوق هادئًا والباعة يقومون برص بضاعتهم، البعض في محلاته، والبعض على عربات خشبية صغيرة يجرها حمار أو يدفعها البائع بيده، وبعض الباعة يفترش الأرض ببضاعته الصغيرة، وهناك عدد قليل من الزبائن الذين يرغبون في شراء الفاكهة والخضروات وهي طازجة قبل أن يزدحم البشر ويأخذون السمين ويتركون الغث كعادتهم.

أخذ سيف يسأل البائعين وخاصة كبار السن منهم عن طفلة بالمواصفات التي أخبره بها البائع، ترتدي فستانًا أبيض وربما تحمل قطًّا أسود مثل الذي يحمله، إلا أن الإجابة دومًا كانت بالنفي، لم يرها أحدٌ من قبل، وقال له بعضهم أنه قد يكون رآها ولكنه لا يتذكرها، فالبائع يتعامل يوميًا مع مئات من الرجال والنساء ومعهم أطفالهم، فقد تكون الطفلة قد مرت بأحدهم ونسيها، وبعد ما يقرب من ساعة فقد سيف الأمل في العثور عليها وقال لنفسه:

- لقد كنت أطارد شبحًا منذ البداية.

أخذه بحثه إلى نهاية السوق، عند موضع يتدفق فيه النهر بمحاذاة أطراف المدينة، وأخذ يتأمل العشب الأخضر والأشجار التي تنبت على جانبي النهر، وأحس أنه مرهق من السير الطويل والسؤال المستمر، فقرر أن يستريح قليلاً، فاقترب من أجمة من الأشجار النابتة على ضفاف النهر، وتلقي بظلالها على الأرض العشبية الخضراء، واستلقى أسفل واحدة من الأشجار، ووضع القط بجواره، ثم اتكأ بظهره إلى جذع الشجرة، وأخذ يتنفس الهواء النقي ويستمتع بنسمة الهواء الباردة التي تهب عليه من ناحية النهر، وبمرور الوقت بدأت حدة الشمس في التزايد، مما جعل الاحتماء

بالظل والهواء البارد يزيده كسلاً، واستكان القط أيضًا لهذا الجو فمد يديه أمامه ووضع رأسه عليهما وهو يلف ذيله حول جسده وبدا أنه قد استسلم للنوم.

مر بعض الوقت على سيف وهو في تلك الحالة، ما بين اليقظة والنعاس، ثم انتبه عندما لاحظ أن هناك فتى صغيرًا ينظر إليه من بعيد نظرات غريبة، وفي تلك اللحظة أدرك سيف أنه بالفعل لمح هذا الفتى عدة مرات في السوق، وبدأ يتساءل إن كان يتبعه، ثم نادى عليه فاقترب الفتى بخطوات مترددة، تأمله سيف جيدًا، فوجده في حدود الثانية عشرة يرتدي ملابس تبدو عليها البساطة ورقة الحال فقال له:

– من أنت أيها الفتي ولم تتبعني؟

فقال الفتى بحدة:

– أريد أن أعرف كيف حصلت على هذا القط ولماذا تبحث عن تلك الفتاة؟

تعجب سيف من رد فعل الفتى الحاد، وقال له:

– ولماذا تهتم أنت بالأمر؟

صمت الفتى مترددًا فقال له سيف مستحثًا إياه على الحديث:

- يبدو أنك تعرف شيئًا!

فزفر الفتى في حرارة وقال قال:

- نعم، أنا أعرف الفتاة التي تبحث عنها.


أسرار الكتب


ذات الرداء الأبيض


أسرار الكتب

[٣]

ذات الرداء الأبيض

أسامة فتى في الثانية عشرة من عمره، يعيش مع والدته وحده، فقد توفي والده منذ سنوات عديدة، وتتحمل أمه مسؤولية تربيته وتعليمه، فهي تعمل بائعة في السوق الذي يقع على أطراف القرية قرب النهر من أجل كسب عيشها والإنفاق على البيت، واعتادت والدته في أيام العطلة الدراسية أن تصطحبه معها عند ذهابها للسوق، ورغم ذلك لم يكن أسامة بارعًا في الاندماج مع البشر ولم يحب ازدحام الأسواق وأصوات البيع والشراء والمساومة على السعر وغيرها، فكان يبتعد ناحية النهر الهادئ وينظر إلى الأشجار الواقعة على الناحية الأخرى من النهر وقد انجذبت نفسه إلى

الطبيعة الهادئة، واعتاد بمرور الوقت أن يعبر الجسر الصغير الواقع في نهاية السوق إلى الناحية الأخرى، حيث يستغرق أحيانًا كثيرة في التفكير والتأمل، وأحيانًا يبتكر بعض الألعاب البسيطة التي يستطيع أن يلعبها وحده، بينما هو ينتظر أن تنتهي والدته من بيع ما أحضرته معها من خضروات وفاكهة، لينتهي اليوم ويعودان إلى بيتهما الذي يقع على مقربة من السوق.

وفي يوم من الأيام، وبينما أسامة يلهو كعادته وسط الأشجار، ويحاول ابتكار شيء ما ليفعله وحده، فإذا به يلمح فجأة فتاة صغيرة تبدو في مثل عمره، ترتدي فستانًا أبيض بسيطًا، تنظر ناحيته في مفاجأة وقد احمرت وجنتاها بخجل شديد، وأشعة الشمس تتسلل من بين الأشجار لتنعكس على شعرها الذهبي، وعيونها الزرقاء الصافية كزرقة النهر، كانت أجمل فتاة يراها أسامة في حياته، وقبل أن يفتح فمه بكلمة، وجدها تركض مبتعدة وسط الأشجار، فتوقف أسامة في موضعه مندهشًا وهو يتعجب من مرأى تلك الفتاة الصغيرة التي لم يرها من قبل.

تسمر أسامة في موضعه مذهولاً وهو يرى الفتاة تتوارى أمام عينيه بين الأشجار، وتردد قليلاً وهو يفكر هل عليه اللحاق بها ليسألها

من هي؟ لكنه لم يتوغل من قبل في تلك الأشجار الكثيفة وخشي أن يضل طريقه، فقرر أن يعود أدراجه قبل أن تقلق أمه عليه، والتي أحست بالقلق عندما رأت التعبير المرتسم على ملامحه فقالت له:

- ماذا هناك يا أسامة؟

فهز رأسه وتمتم قائلاً:

- لا شيء.

لم ترتح أمه لإجابته ولكنها تركته على راحته فقالت له:

- أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام يا ولدي الحبيب، سأعدّ لك العشاء.

وبعد أن تناول أسامة عشاءه، توجه إلى غرفته واستلقى على سريره وهو يفكر في الفتاة ذات الرداء الأبيض، وهو يقول لنفسه، من هي يا ترى؟ فلم يكن وجهها مألوفًا له، كان متأكدًا أنه لم يرها من قبل، وتساءل أيضًا عن سبب وجودها وسط الأشجار وحدها؟ وهكذا غرق في أفكاره حتى راح في النوم.

استيقظ أسامة في صباح اليوم التالي متحمسًا للذهاب إلى السوق، وتعجل والدته التي اندهشت من حماس ابنها الذي لم يتحمس من

قبل للذهاب معها إلى السوق، وطوال الطريق كان أسامة يسأل نفسه: هل سأراها مرة أخرى اليوم؟

وهكذا ظل أسامة مشغولاً شارد الذهن طوال اليوم، وقد استولى سر الفتاة الصغيرة على نفسه، وانتظرها على ضفة النهر وهو يبحث بين الفينة والأخرى عن أية إشارة تدل على وجودها، إلا أن السكون ظل مخيمًا على كل شيء بلا أية بادرة تدل على وجودها، وتكرر هذا الأمر عدة أيام حتى أصابه اليأس، وبدأ يسأل نفسه إن كان قد تخيل رؤيتها، وأنه لا توجد فتاة من البداية، كان يسأل هذه الأسئلة لنفسه وهو يمسك ببعض الأحجار الصغيرة ويلقيها بقوة لتتواثب على سطح النهر قبل أن تغوص إلى القاع.

وفي أحد الأيام كان يجلس على ضفة النهر يمارس هوايته المحببة في إلقاء الأحجار في النهر، وأثناء التفاته لالتقاط حجر صغير، لمح ظلاً وراء الأشجار، فأدرك أن هناك من يراقبه، وصاح قائلاً:

- من هناك؟

وبسرعة توارى الظل مختفيًا بين الأشجار، ورأى في لمحة سريعة فستانًا أبيض يمر من بين الأغصان وهو يسمع صوت تكسر أوراق

الشجر أسفل أقدام مبتعدة فقال بصوت أعلى:

- لا تهربي مني مرة أخرى فأنا أبحث عنكِ منذ عدة أيام .. أرجوكِ.

توقف الصوت على إثر نبرته المتوسلة، فاقترب ناحيتها وبدأ يراها واقفة وسط الأشجار، وهي تنظر في الأرض بخجل دون أن تلتفت إليه، فقال لها أسامة:

- ما اسمك؟

صمتت قليلاً ثم قالت:

- ريم.

فابتسم وهو يقول لها:

- وأنا اسمي أسامة.

ثم جلس على الأرض وهو يقول لها بنبرة ودودة:

- هل تسكنين هنا منذ فترة قريبة؟ فأنا لم أركِ بالجوار من قبل.

أذابت نبرته الودودة بعضًا من خجلها فأومأت برأسها بإيجاب وهي تجلس مسندة ظهرها إلى شجرة مجاورة له.

فقال لها:

- مع من تسكنين؟

صمتت قليلاً، ثم أجابته قائلة:

- مع جدتي.

كان صوتها عذبًا صافيًا كزرقة عينيها، ومع ذلك فقد أحس أسامة فيه بحزن دفين يطفو رغمًا عنها في نبرات صوتها، فأخذ يفكر ثم قال لها:

- لم أكن أعرف أن هناك من يسكن بهذه الأنحاء، ولا أعرف ما يوجد وراء تلك الأشجار الكثيفة.

فقالت:

- لقد قدمت للعيش مع جدتي بعد ... موت أبي وأمي.

قالت كلماتها الأخيرة وعيناها تترقرقان بالدموع فلام نفسه وهو يشعر بالذنب لأنه جلب إليها هذه الذكرى بأسئلته، وقال في أسف:

- أعتذر .. لم أعرف ..

مسحت ريم دموعها بكم ردائها الأبيض وظلت صامتة دون أن تتكلم، وظل هو أيضًا صامتًا يكتفي بتأملها، ثم قالت وهي تنظر

ناحية الأفق:

- يجب أن أعود قبل أن تفتقدني جدتي.

ثم قامت من موضعها، فقال لها وهو يمسك بيدها:

- مهلاً .. هل سأراكِ مرة أخرى.

ثم ترك يدها عندما لاحظ خجلها، فقالت له وهي تركض مبتعدة مدارية الحمرة التي اكتستها:

- لا أعرف .. ربما.

عاد أسامة إلى البيت وهو يشعر بسعادة غامرة، وتعجبت أمه من تغير حاله كل يوم من نقيض إلى نقيض، وأدركت أن هناك سرًا يخص ولدها، ولعلها أحست بالأمر بفطرة الأم التي تدرك مشاعر طفلها الصغير، ولكنه لم يجبها عندما سألته عن تغير حاله، فتركته على راحته غير راغبة في الضغط عليه.

لم يستطع أسامة النوم بسهولة في تلك الليلة، مفكرًا إن كان سيراها مرة أخرى أم لا؟ ولم يعرف سبب هذا الاشتياق لرؤيتها مرة أخرى، هناك شيء ما مس شغاف قلبه، ولا يعرف سره، ظلت صورتها متعلقة في ذهنه حتى غلبه النعاس وراح في نوم عميق، استيقظ منه

صباح اليوم التالي وأخبر والدته أنه سيسبقها للسوق، مما زاد من تعجبها، وعلى ضفة النهر جلس أسامة بين الأشجار يسأل نفسه مجددًا، هل سيراها اليوم؟ شيء ما بداخله أنبأه أنها ستأتي، وكان حدسه صادقًا، فقد أشرقت ريم مبتسمة وهي تنظر ناحيته، فقفز من موضعه وهو يقول:

- كنت أعرف أني سأراكِ اليوم.

فقالت له:

- وكيف عرفت؟

فأشار بسبابته إلى صدره وقال:

- مجرد إحساس.

نمت صداقة حميمة بين الطفلين في فترة قصيرة، فقد كان كلاهما وحيدًا بلا أصدقاء، وأحس كل واحد منهما باحتياجه إلى الآخر، فقد أحس أسامة بشكل ما أنها تشبهه، وحيدة مثله، كما أن معرفته بموت والديها جعلته بالرغم من سنه الصغيرة يمتلك حنانًا أبويًا غامضًا ناحيتها، وكأن القدر وضعه في طريقها ليصبح مسئولًا عنها، فبدأ يحكي لها عن مدرسته ووالدته وحياته، وهي تنظر إليه

تبتسم وتستمع ولا تتكلم كثيرًا، وفي النهاية بعد أن شعر أسامة أنه قال كل شيء ألح عليها أن تتكلم، فأخذت تفكر، ثم أخبرته أنه رأته قبل أن يراها بعدة أيام، فمنذ مقدمها إلى بيت جدتها، اعتادت أن تتجول حول البيت لتتعرف على المكان، وأحست بالراحة وسط الطبيعة، واعتادت مع الوقت على التجول والابتعاد أكثر عن بيتها، حتى رأته بالقرب من النهر فأثار فضولها، وكانت تنظر إليه من بعيد بدون أن تجرؤ على الحديث معه حتى وجدته في طريقها مرة بالصدفة وكان ما كان.

فضحك أسامة وقال:

- لا شك أنها أفضل صدفة في الدنيا.

وهكذا اعتاد أسامة وريم على الالتقاء يوميًا لتبادل الحديث، وابتكار الألعاب البسيطة سويًا، وكان كل واحد منهما يشارك الآخر أفكاره الخاصة، وبانقضاء الأيام تنامت الصداقة العميقة بينهما، وأصبح أسامة منذ عودته للبيت ينتظر اللحظة التي يعود فيها مرة أخرى لضفاف النهر حيث يلتقي بريم.

وفي يوم من الأيام جلس أسامة ينتظر ريم وتأخرت قليلاً في ذلك

اليوم ولكنها حضرت بالنهاية، وأحس في هذا اليوم أنها متغيرة، قلقة، فقال لها:

- ما بكِ؟

فصمتت قليلاً ثم هزت رأسها وقالت وهي تبتسم:

- لا شيء.

ألح أسامة عليها ولكنها لم تزد عن قولها، فلم يرغب في أن يضايقها بإلحاحه وتركها على راحتها، ولكنها بعد فترة قصيرة أخبرته أنها ستغادر، وتعجب من مغادرتها مبكرًا، فقال لها:

- مهلاً.

ولكنها لم تمهله وأسرعت مبتعدة، فأحس أسامة بالحيرة من تصرفها، وقرر أنه في اليوم التالي يجب أن يعرف منها ما حدث، فقد أصابته بالقلق، وفي اليوم التالي جلس كعادته ينتظرها ولكن طال الوقت ولم تحضر، وظل في موضعه ينتظرها دون أن يغادر موضعه حتى اقتربت الشمس من المغيب، وجاءت والدته للبحث عنه، فوجدته جالسًا صامتًا، فأصابها القلق عليه وهي تقول له:

- ما بك يا ولدي؟

فهز رأسه وقال لها:

- لا شيء.

كانت هذه هي المرة الأولى منذ أن التقى بها يمر يوم دون أن يراها، وأصابه ذلك بالضيق، ومرت عدة أيام على هذه الحال دون أن يراها فأصابه حزن شديد وهو يفكر فيما أصابها، وفي أحد الأيام كان جالسًا أمام النهر يلقي بأحجاره الصغيرة بلا مبالاة محاولاً أن يتشاغل عن التفكير، وفجأة سمع خطوات صغيرة وراءه، فالتفت مسرعًا ليجد ريم تقترب منه، فقفز من موضعه وهو يفرك عينيه غير مصدق ثم اقترب منها مسرعًا وكاد يحتضنها ولكنه تمالك نفسه، ثم قال لها في عتاب:

- أين كنتِ طوال الأيام السابقة.

فقالت له بحزن:

- لا تشغل بالك، إنها مشاكلي الخاصة.

فقال لها:

- نحن أصدقاء، والأصدقاء يتشاركون كل شيء حتى الهموم والمتاعب.

ابتسمت رغمًا عنها لكلماته الناضجة بالرغم من سنه الصغيرة، ولكنها لم تجب عن سؤاله ولاذت بصمت غامض فقال لها معاندًا:

- في المرة القادمة عندما تختفين سأذهب للبحث عنكِ.

فقال له في خوف:

- أرجوك لا تفعل، إن لم تجدني في يوم ما فلا تبحث عني.

فقال لها بحيرة:

- لما تقولين ذلك؟

فقالت له وهي تنظر في عينيه بتصميم لم يعتده في ملامحها الطفولية:

- فقط عدني.

أحس بالحيرة أمام تصميمها فقال لها:

- أعدكِ.

ولم يعودا إلى سيرة تلك الأيام التي اختفت فيها ريم مرة أخرى، ولكنه أحس بتغيرها منذ ذلك اليوم، فكانت تجلس معه قلقة متوترة، وتنظر من وقتٍ لآخر وراءها كأنها تبحث عن شيء ما، ولم تعد تمضي وقتًا طويلاً معه كسابق عهدهما، وكان هذا يثير الحزن

وأحيانًا الضيق في نفس أسامة، فهو يريد أن يفهم، أن يعرف ما حدث! ولكن الأمر ظل غامضًا كما كان.

مرت على هذه الحال عدة أيام وأحس أسامة أنهما قد استعادا طبيعتهما، وأحس بالراحة لذلك، ولم يتطرق مرة أخرى لذلك الاختفاء، وبدأت هي بمرور الوقت تستعيد ابتسامتها وإشراقها، ولم يعد يشعر أنها قلقة متوترة طوال الوقت.

وفي يوم من الأيام لم تأتِ ريم، وانتظرها كثيرًا، ولم يبدُ لها أثر، وفي اليوم التالي لم تظهر أيضًا، فأحس بقلق شديد، هل ستظهر مرة أخرى مثل المرة السابقة بعد عدة أيام؟ انتظر كل يوم بلا أثر، ففكر أن يبحث عنها، تذكر وعده لها، ولكن خوفه عليها غلب رغبته في أن يحتفظ بوعده، يجب أن يطمئن عليها.

أخذته قدماه إلى الأشجار الكثيفة يتوغل بداخلها يبحث عنها، لم يبتعد بهذا المقدار من قبل، لم يكن حتى متأكدًا أنه يسير في الطريق الصحيح، وبالرغم من ذلك ترك قلبه يقوده في بحثه عن ريم، وبعد مرور فترة من الوقت أحس بالوحشة، وبداخله أحس أنها لا يمكن أن تكون بعيدة كثيرًا، فهي كانت تأتي إليه كل يوم،

بالتأكيد هي قريبة من هذا المكان، بدأت كثافة الأشجار تخف في تلك اللحظة، فتسارعت خطواته في هذا الاتجاه، فوجد نفسه في بقعة متسعة بلا أشجار، ووسطها يوجد منزل خشبي قديم، وأمام البيت كانت تجلس هي، ريم، في عينيها حزن عميق، وبدا أنها لم تنتبه لوجوده، فاقترب منها وهو يهتف باسمها:

- ريم!

نظرت ناحيته بدهشة، ثم تحولت ملامحها لغضب وهي تقول له:

- ماذا تفعل هنا؟ لماذا أتيت؟

تفاجأ من رد فعلها فأكملت غاضبة:

- لقد وعدتني.

وقبل أن يجيبها سمع صوت فحيح عاليًا وقفز قط أسود من فوق البيت يحاول خمش وجهه، فتراجع أسامة في خوف، وأسرعت ريم تمسك بالقط وقالت لأسامة برجاء:

- أرجوك اذهب ولا تعد مرة أخرى.

أثار القط فزعه، كما أنه تعجب من كلام ريم وأحس بالصدمة وألم

في قلبه من رد فعلها، فتراجع في خطوت حائرة، ونظر إليها مرة أخرى، ثم انطلق مبتعدًا عائدًا إلى بيته.

في الأيام التالية اعتاد أسامة أن يتسلل بالقرب من بيتها، ليظل وسط الأشجار يراقبها جالسة، صامتة، تلتمع عيونها بالحزن، والقط الأسود جالسًا بقربها، يراقبها بأعين لا تطرف، كان أسامة يجلس على مسافة كافية لا تسمح لها بإدراك وجوده، وهو يشعر بالأسى والحيرة، ثم يبتعد مرة أخرى مكتفيًا باطمئنانه عليها، حتى جاء يوم ولم يرها، ظل طوال اليوم ينتظر ظهورها، حتى حل المساء ورأى ضوءًا من نافذة البيت، فعرف أن أحدًا ما هناك، وفكر أن يطرق الباب ليطمئن عليها ولكنه لم يجرؤ على ذلك، وهكذا مرت عدة أيام دون أن يراها حتى أصابه اليأس .. أي سر يحيط بكِ يا ريم، أي سر.


أسرار الكتب

الكوخ بين الأشجار




أسرار الكتب



[٤]

الكوخ بين الأشجار

أخذ سيف يستمع إلى ما يرويه أسامة بذهول وتعجب وهو يشعر أنه كلما حاول حل لغز وجد نفسه يعلق في مزيد من الألغاز والأسرار، وما أن انتهى أسامة من حكايته قال له سيف:

– هذا أغرب شيء سمعته في حياتي.

هز أسامة رأسه متفهمًا وقال:

– ولكنه حقيقي أؤكد لك.

فقال له سيف:

– وأين يقع هذا البيت الذي تسكن به ريم وجدّتها؟

فأشار أسامة بيده إلى الناحية الأخرى من النهر وهو يقول:

- إنها تسكن في تلك الناحية، إذا عبرت الجسر وسرت بهذا الاتجاه فستجد أجمة كثيفة من الأشجار، ما أن تخترقها ستجد رقعة خالية من الأشجار يتوسطها البيت القديم.

نظر سيف في الاتجاه الذي أشار إليه أسامة ثم قال:

- يبدو أنني سأحتاج إلى أن أذهب لأعرف كل شيء بنفسي.

فقال له أسامة بلهفة:

- هل من الممكن أن آتي معك؟

هز سيف رأسه وهو يقول:

- من الأفضل أن أذهب وحدي.

بدا الحزن والقلق على وجه الفتى الصغير فربت سيف على كتفه وقال:

- لا تقلق، كل شيء سيكون بخير.

ولوح بيده مودعًا أسامة وسار في الاتجاه الذي أشار إليه عابرًا الجسر الخشبي الصغير إلى الناحية الأخرى من النهر، يتبعه القط

وهو مستمر بإطلاق موائه، فتجاهله سيف وهو يسير على أرض عشبية خضراء، وتتناثر حوله العديد من الأشجار هنا وهناك، ولكنه بمرور الوقت أحس أن الأشجار تزداد كثافة، حتى اخترق أجمة من الأشجار تحجب أشعة الشمس وتلقي ظلالاً كثيفة على المكان، انتهى مسير سيف أمام بيت خشبي عتيق، يقف وحيدًا وسط الأشجار، فاقترب منه ببطء وهو يتفحصه، لم يبدُ عليه أي شيء غريب سوى الطراز القديم الذي لم يعتد سيف عليه، ولكن لا شيء خارق للمألوف هنا، أخذ نفسًا عميقًا ليستجمع نفسه، قبل أن يطرق الباب الخشبي، ثم انتظر عدة لحظات ولكنه لم يتلق أي استجابة، أعاد الطرْق عدة مرات ولم يجبه سوى الصمت المطبق.

لم يكن سيف على استعداد أن يتراجع بعد أن بلغ هذا المدى، فطرق الباب بقوة أكبر، فانفتح الباب ـ الذي لم يكن مغلقًا بإحكام ـ تحت تأثير طرقاته، فأحس سيف بالخوف من أن يظن أحد أنه يحاول أن يقتحم البيت، ولكنه قال لنفسه:

- بعد كل هذا الطرْق ولم يجب أحد، لا شك أن البيت فارغ.

ثم انتابه الشك ألا يكون البيت نفسه الذي يقصده الفتى، فقال

وهو ينظر لهيأة البيت القديمة:

- أو ربما يكون مهجورًا.

تردد قليلاً وهو ينظر للباب المفتوح، فلو كان هناك أحد بالداخل فليس من اللائق أن يدخل دون استئذان أصحاب البيت، إلا أن فضوله كان أقوى من تردده، فخطا داخل البيت تسبقه نظراته الفضولية، وعيونه تتفحص المكان، لم يكن هناك اختلاف كبير داخل البيت عن مظهره بالخارج، فالمكان قديم، غير منظم، وتنتشر به الأتربة، وتُغطى العديد من قطع الأثاث بأغطية شبه ممزقة، ولا يبدو حالها أفضل من باقي المكان.

كاد سيف يظن أن البيت مهجور فعلاً، لولا أنه رأى موقدًا صغيرًا ومنضدة عليها طبق به فتات من أكل وكوب شاي ليس به إلا البقايا، رفعه سيف إلى أنفه وتشممه بحذر قبل أن يقول:

- يبدو هذا حديثًا.

أعاد الكوب إلى موضعه بخوف عندما تأكد أن البيت ليس مهجورًا، فلو رآه أحد الآن سوف يظنه مقتحمًا أو لصًا، ففكر في أن يعود أدراجه خشية الوقوع في مشكلة، وفجأة التقطت أذنه صوت

أنين خافت، فتسمر في موضعه، وهو يبحث بعينيه عن مصدر الصوت، كان هناك ممر صغير أمامه، فتوجه ناحيته وهو يتتبع الصوت بأذنه، فوجده يأتي من وراء باب خشبي على يمينه، أدار المقبض ليفتح الباب، ويدلف إلى غرفة صغيرة، لم تكن أحسن حالاً من باقي البيت من حيث القِدم والإهمال، ولكن بمنتصف الغرفة كان هناك سرير صغير، اقترب منه ببطء ليجد طفلة صغيرة راقدة عليه، تأملها سيف فوجدها ذات بشرة شاحبة وجسد هزيل ووجه نحيل بحيث برزت عظام وجنيتها، كانت تئن وهي مغمضة عينيها وبدا أنها لم تشعر به ولم يدرك ماذا يفعل، كان الموقف يثير أعصابه بدرجة كبير، وسأل نفسه: هل هي الطفلة التي يبحث عنها؟

مد يده بهدوء ليمس جبهة الطفلة كي يطمئن عليها، وبمجرد أن لمست أصابع يده الباردة جبهة الفتاة، فتحت عينيها ثم صرخت في رعب، فتراجع سيف فزعًا ناحية الباب، وفجأة سمع صوت قدمين فاستدار، ولكنه أحس بيد تقبض على كتفه ووجد نفسه ينظر في وجه امرأة عجوز عينيها تشتعل بالغضب وهي تمسك به بقوة لا تتناسب مع سنها وهيئتها وهي تقول بصوت غاضب:

– ماذا تفعل في بيتي أيها اللص الحقير.

وفي هذه اللحظة قفز القط أمامهما وهو يطلق مواءً عاليًا، فتركت العجوز كتفه وتراجعت خطوة للوراء وقالت بلهجة تبدو فيها المفاجأة:

- ماذا يحدث بحق الجحيم؟

وأخذت تنقل بصرها بين القط وسيف قبل أن تتمتم ببطء:

- يبدو أني بدأت أفهم ما يحدث هنا.

أمسك "سيف" كتفه وهو يتألم ويقول لها:

- وأنا لا أفهم شيئًا على الإطلاق.

كانت الفتاة الصغيرة تنظر إلى ما يحدث في فزع، فاقتربت منها العجوز وهي تربت على كتفها وتقول لها بحنان غريب:

- لا تخافي يا صغيرتي، يجب أن تتناولي دواءك الآن.

ثم أخرجت من بين طيات ملابسها قنينة زجاجية بها سائل أحمر قانٍ، وتناولت منها الفتاة عدة رشفات ثم أعادت رأسها للوسادة وأغمضت عينيها، ولم يدر سيف هل نامت أم تتظاهر بالنوم، ولكنه أحس بالشفقة ناحية ضعفها البادي عليها، ثم التفت إلى العجوز

وهو يأمل أن يسمع منها تفسيرًا لما يحدث، وعندما فتح شفتيه ليهم بالكلام، وضعت العجوز سبابتها أمام شفتيها في إشارة للصمت، ثم حملت القط بين ذراعيها وقد استكان وكأنه اعتاد على ذلك، وأشارت لسيف أن يتبعها، فسار وراءها بخطوات هادئة لكيلا يزعج الفتاة النائمة، وبمجرد أن أصبح كلاهما خارج الغرفة، أغلقتها العجوز بهدوء ثم اتجهت نحو مدخل البيت، وجلست على أحد المقاعد أمام المنضدة الصغيرة وأشارت لسيف ليجلس على الآخر، فجلس سيف وهو يشعر بالتوتر ولا يدري ماذا يقول لها فغمغم:

- أعتذر عن اقتحام البيت فأنا لست لصًا حقا.

ابتسمت العجوز في تفهم وقالت وهي تداعب فرو القط بيدها:

- أدرك ذلك الآن، عندما رأيت الباب مكسورًا في بادئ الأمر ظننت أنه لص، وخشيت أكثر ما خشيت على حفيدتي الصغيرة فهي لا تستطيع الدفاع عن نفسها، ولكنني لما رأيت قطي معك فهمت الأمر.

أحس سيف بالحيرة وارتبكت أفكاره وظهر ذلك جليًا من خلال

الجمل غير المترابطة التي خرجت من فمه وهو يقول:

- قطك؟ لست أفهم! لقد اشتريت هذا القط من محل حيوانات أليفة .. ثم بدأ يتصرف بغرابة .. وقد أفقدني أعصابي .. ووجدت نفسي هنا ..

لم تتغير الابتسامة الهادئة على وجه العجوز أو حركة يدها الرتيبة على ظهر القط وقالت له:

- لا عليك، فأنا أتفهم ما حدث.

فقال بنبرة رجاء:

- وأنا أيضًا أريد أن أفهم.

زفرت من صدرها بحرارة قبل أن تقول له:

- الأمر معقد ولا أعرف كيف أشرحه لك.

جلس كلاهما في موضعه للحظات، قبل أن تضع العجوز القط جانبًا وهي تنهض من مجلسها، وملأت براد الشاي بالمياه وأشعلت شعلة الموقد الوحيدة، ووضعت عليها البراد وتركت الماء ليغلي قبل أن تقول له:

- كما أخبرتك منذ قليل فهذا القط هو قطي.

فقال سيف بنفاد صبر:

- فهمت هذه النقطة ولكن هناك الكثير من الأسئلة الأخرى.

جلست مرةً أخرى وهي تداعب القط المستكين بين يديها قائلة:

- منذ زمن بعيد كنت أعيش وحدي مع ابنتي، التي خرجت بها من الدنيا، لم أدخر شيء في وسعي لتربيتها، فعلت كل ما يمكن أن تفعله أي أم في الدنيا، ولكن المسكينة، لا أدري أين أخطأت في تربيتها.

لم يعرف سيف ما علاقة ذلك بموضوعهم ولكن كلام العجوز أثار اهتمامه فقال لها:

- ماذا حدث لابنتك؟

تنهدت العجوز وأكملت قائلة:

- عندما بلغت ابنتي سن المراهقة، أحبت شابًا من شباب تلك الأيام، أنت تعرفهم بالتأكيد، هؤلاء الأثرياء العابثين.

أومأ بإشارة من رأسه ولكنها لم تنتبه إليه وأكملت حديثها وهي

شاردة كأنها تسترجع ذكرى بعيدة:

- كان هذا الشاب يرغب بها وتقدم أكثر من مرة ولكني رفضت لأسباب واضحة، ولكن هذه المشاغبة قررت أن تهرب معه ليتزوجا بعيدًا عني، وانقطعت أخبارها عني بعد ذلك فترة طويلة.

ترقرقت الدموع في عينيها مع كلماتها الأخيرة، وتنهدت بحرارة ثم أكملت قائلة:

- بعد ما يقرب من عامين من زواجها أرسلت لي خطابًا تخبرني بأنها أنجبت طفلها الأول، فتاة جميلة، وأنني أصبحت جدة، رق قلبي لها وتمنيت أن تعود إليّ ولكني لم أرها مرة أخرى.

احتبست الكلمات الأخيرة في حلقها والدموع تنساب من عينيها، فقال لها سيف:

- ماذا حدث؟

صمتت العجوز قليلاً ثم قالت:

- لقد ماتت ابنتي وزوجها في حادث سيارة.

ارتفع صفير البراد في تلك اللحظة متزامنًا مع كلماتها الأخيرة مما

جعل سيف ينتفض في مقعده فقامت العجوز لتطفئ النار وبدأت في إعداد أكواب الشاي وهي تسأله:

- كم ملعقة من السكر؟

فقال لها:

- واحدة من فضلك.

أضافت السكر وملعقة من الشاي وصبّت الماء المغلي وقامت بتقليب هذا المزيج، بينما سيف يفكر في كلامها ويتشوق لمعرفة المزيد، وعادت هي إلى مقعدها بعد أن وضعت كوب الشاي أمامه وهي تقول:

- كان ذلك بعد عدة سنوات من مولد الطفلة، حادث سيارة قد يحدث لأي واحد، ولكن بقدرة الله نجت الطفلة الصغيرة من هذا الحادث، وبعد أن تأكدوا من نسبها إليّ أحضر أحد المحامين الفتاة الصغيرة لتعيش معي هنا، وقلت لنفسي أن الله عوضني عن ابنتي التي هربت وتركتني في سنين مراهقتها.

أخذ سيف يرتشف من كوب الشاي الساخن وهو يستمع إليها، وتذكر في تلك اللحظة أنه لم يتناول إفطاره، كما أن برودة الجو ما

زالت قارصة، مما جعل كوب الشاي محببًا في ذلك الوقت، وبدأ خدر لذيذ يسري في جسده، ولكنه استمر في الاستماع لحكاية العجوز وهي تكمل قائلة وقد تسلل إلى كلامها بعض الحدة:

- ولكن يبدو أن تلك الشقية قد ورثت طباع أمها العنيدة، فبعد مقدمها بفترة قصيرة لاحظت أنها تغادر البيت وتقضي ساعات طويلة بالخارج، فأمرتها ألا تخرج وألا تبتعد عن البيت، إلا أنها أخذت تعصي أوامري، واستمرت بالخروج دون معرفتي لتقضي وقتًا طويلاً خارج المنزل، حتى اكتشفت الأمر مصادفةً، وعلمت أنها تصادقت مع أحد الأطفال الأشقياء، ورأيت فيها ما حدث لأمها من قبل وخفت عليها من تكرار المصير نفسه.

تناول سيف بضع رشفات أخيرة من كوبه ثم وضعه جانبًا وهو يقول:

- بالتأكيد حكاية مؤثرة وأشعر بالأسف لأجل ابنتك، ولكن ما دخل حكاية القط معي بكل هذه القصة؟

فقالت العجوز وهي تتأمل كوب الشاي الفارغ:

- القط؟ نعم، ألم أخبرك أنه قطي؟ بل أنه في الواقع خادمي.

لم يفهم سيف كلمتها الأخيرة وقد أحس أن هناك غيمة تخيم على عقله فقال لها:

- عفوًا؟!

وفي تلك اللحظة استحوذت الغيمة على وعي سيف فسقط عقله في ظلام عميق بينما سقط جسده أسفل قدمي العجوز.


أسرار الكتب

في غمار المجهول




أسرار الكتب

[٥]

في غمار المجهول

لم تتخيل ريم الفتاة الصغيرة أن تنقلب حياتها رأسًا على عقب بعد موت والديها في حادث سيارة، تبدو فكرة الموت بعيدة غير مستساغة في نفس الطفل حتى يفقد شخصًا عزيزًا عليه، حينها يبدأ في إدراك قسوة الموت، ومعنى أن تفارق شخصًا اعتدت عليه وأحببته، ولم يكن بالنسبة لريم أي شخص، بل كانا أقرب شخصين في حياتها، وربما الوحيدين المقربين منها، فلا أتراب لها في مثل سنها، ولا أقارب يتبادلون معهم الزيارات، لم تفهم في البداية، ولكنها عرفت بعد ذلك أن زواج أبيها وأمها تم بغير رغبة من العائلتين، بسبب اختلاف الطبقات وأسباب أخرى غامضة لم تفهمها، ولكنها

عاشت هكذا لا تعرف عن أقاربها شيئًا.

وهكذا وجدت نفسها بعد الحادثة وحيدة مشتتة حائرة، فقد رفض أقارب أبيها استقبالها للعيش بينهم، وقالوا إنها تنتمي لوالدتها، وهكذا بحثوا عن القريبة الوحيدة المتبقية لديها من جهة الأم .. جدتها.

لم تسمع ريم أمها تتكلم كثيرًا عن جدتها، وأحيانًا كانت تشعر أنها تهرب من هذه الذكرى، كانت هناك ظلال من الحزن في عينيها عندما يتطرق حديثهما إلى هذا الأمر، مما جعل ريم تصمت ولا تسأل كثيرًا، ولكنها وجدت نفسها في طريقها للعيش مع جدتها، أصابها ذلك برهبة وخوف من المجهول، وفي ذلك اليوم كانت جالسة في سيارة بجوار المحامي الذي سيذهب بها إلى جدتها بعد أن أخبرها بكل شيء، كان صديقًا لوالدها واعتنى بها حتى تتم تسوية الأمر، وفي النهاية عندما وصلا إلى أطراف المدينة الصغيرة حيث توجد جدتها، وجدا الجدة في انتظارهما، وقد ضمت الطفلة إليها عندما رأتها واحتضنتها، مما أزال جزءًا من رهبة ريم وأيضًا اطمأن المحامي أنه قد أدى مهمته فقام بتوديعهما.

أثناء سيرها بجوار جدتها متجهة إلى بيتها الجديد أحست ريم بمشاعر مضطربة، فهي مقدمة على حياة جديدة لم تعتد عليها، وأخذت طوال الطريق تنظر إلى جدتها التي لم تتبادل معها حتى الآن كلمة واحدة، بل أمسكت بيدها تجذبها وهي تسير بجوارها، ووجدت نفسها فجأة في منطقة هادئة تحوطها الأشجار، وهي التي اعتادت طوال حياتها على زحام المدن، زاد المكان الرهبة في نفسها، حتى وجدت جدتها تقترب من منزل خشبي صغير بين الأشجار، وثم فتحت الباب وهي ترحب بريم في بيتها الجديد.

لم يرحها مظهر البيت؛ فيد الإهمال طالت كل شيء فيه، والتمست لجدتها العذر فهي تعيش وحدها، ولكنها لم تشعر بارتياح أنها ستبقى في هذا المكان، وتركتها الجدة تتلفت في المكان، وفجأة صرخت ريم في رعب عندما قفز قط أسود أمامها وهو يكشر عن أنيابه، فاقتربت منها الجدة مسرعة وأمسكت به وقالت لها:

- لا تخافي يا طفلتي الصغيرة، فهذا حيواني الأليف الذي يؤنسني في وحدتي، وهو لن يؤذيكِ.

لم ترتح ريم لمظهر القط الغريب والمخيف، ولم تعرف لما قد تربي

جدتها حيوانًا مثله في بيتها، وقالت لنفسها أن كبر السن قد يجعل الكبار يقومون بأشياء غريبة، ولكنها أدركت منذ اللحظة الأولى لسبب غامض أنها لا تحب هذا القط، وأنها لا ترغب أن تكون في أي مكان بالقرب منه، ولكنها لم تخبر جدتها بذلك في البداية، فلم تشأ أن تصبح ضيفًا ثقيلاً على جدتها.

مضت الأيام الأولى لريم في بيت جدتها طويلة ومملة، فقد كانت الجدة تغادر البيت كل يوم وتتركها وحدها، لا تعرف أين تذهب أو متى تعود، ولكنها كانت تشعر بالغربة وهي جالسة وحدها بالبيت، وتبكي كلما تذكرت والديها، ولم تفكر ريم في مغادرة البيت فهي لا تعرف المكان، وتخشى أن تضل طريقها، ولم يبدُ على الجدة أنها مهتمة باصطحابها معها، وبالرغم من رغبتها في وجود جدتها بجوارها، فقد كانت ترتاح لوجودها بالخارج لأنها تصطحب معها القط الأسود وكان هذا يزيح العبء من على صدرها قليلاً.

وفي يوم من الأيام أثناء جلوس ريم وحدها بالبيت، أحست بضيق شديد وكأن هواء البيت الخانق يجثم على صدرها، فتغلبت على ترددها وقررت أن تخرج للمشي قليلاً، وأحست بالخوف في بادئ الأمر لأن البيت منعزل عما حوله، ولا توجد بيوت أخرى بالقرب

منهم، إلا أنها استمتعت بمنظر الأشجار المحيطة، وبعد أن اعتادت على التجول في المكان بدأ حب الطبيعة يتسلل إلى قلبها، وأصبحت كل يوم بمجرد رحيل جدتها تخرج لتتجول وسط الأشجار وتتنفس هواء الصباح النقي البارد، وبمرور الوقت أخذتها أقدامها إلى النهر القريب من البيت، وأعجبها الجلوس أحيانًا بالقرب منه وتأمل انعكاس الصور المختلفة على مياهه، وإن لم تجرؤ يومًا على عبوره إلى الناحية الأخرى، بدأت تقتنع أن هذا هو عالمها الخاص، وملأت مخيلتها المكانَ بالحياة.

وفي إحدى جولاتها المعتادة لمحت فتى صغيرًا لم تره من قبل يجلس بالقرب من النهر، ويبدو عليه أنه في مثل عمرها تقريبًا، ظلت تراقبه من بعيد دون أن تتكلم، لم يكن لديها الجرأة على الاقتراب والحديث معه، وتكرر الأمر عدة أيام وفي كل مرة تراقبه من بعيد في صمتها المعتاد، وبشكل ما كان يخفف هذا من إحساسها بالوحدة، حتى جاء يوم وهي تسير هائمة في أفكارها الخاصة غير منتبهة لما حولها، فوجدت نفسها فجأة أمام الفتى الصغير، فأحست بالدماء الساخنة تندفع إلى وجنتيها ولم تدرِ ماذا تفعل سوى أن تركض من أمامه، لم تدرك لما فعلت ذلك، ولكن الخجل هو الذي تحكم

في تصرفاتها، وفي ذلك المساء وبعد أن تناولت العشاء مع جدتها جلست في سريرها تفكر فيه وهي تتأمل ضوء القمر المتسلل إلى النافذة من بين الأشجار وقالت لنفسها أنها بالتأكيد قد أخافته ولامت نفسها.

في اليوم التالي ترددت قليلاً وهي تفكر هل تذهب إلى المكان نفسه أم لا؟ ومنعها الخجل من الذهاب إلى هناك وأصبحت تكتفي بالتجول حول البيت، حتى قررت ذات يوم أن تذهب وتراقبه من بعيد كما تفعل كل يوم، ثم قالت لنفسها: لقد مضت عدة أيام لعله لم يعد يذهب إلى هناك.

أحست بالضيق من فكرة أنها قد لا تراه مرةً أخرى، فبالرغم من أنها لم تتبادل الحديث معه قط، إلا أنها كانت تشعر أنه صحبتها الوحيدة، وهكذا حسمت أمرها وسارت حيث اعتادت أن تراه وهي تتوقع أنه لن يكون موجودًا، ولكنه كان هناك جالسًا يبدو حزينًا وهو يلقي بعض الأحجار الصغيرة في النهر، وظلت هي تتأمله صامتة، حتى التفت ناحيتها ورآها، حاولت أن تركض مرة أخرى، ولكنه ناداها، فتوقفت، وحاول أن يتكلم معها، تبادلت معه كلمات قليلة، وعرفت اسمه وأخبرته باسمها ولم ترغب في أن

تتكلم كثيرًا عن نفسها، ولكنها أحست بالارتياح في تلك الدقائق التي قضتها معه.

مضت عدة أيام على هذه الحال، وأصبح أسامة جزءًا من يومها، واعتادت على وجوده في حياتها، وكان هو عزاءها وسلوانها في تلك الأيام العصيبة التي تمر بها. وفي يوم من الأيام عادت إلى البيت لتجد جدتها في انتظارها وعلى ملامحها الغضب، وأحست ريم بالخوف فبادرتها قائلة:

- مرحبًا يا جدتي.

تجاهلت جدتها تحيتها وهي تقول لها:

- أين كنتِ؟

فقالت ريم:

- كنت أتجول في المنطقة المحيطة بالبيت لأتعرف على المكان.

قالت لها الجدة وهي تنظر في عينيها:

- منذ متى تخرجين دون أن تخبريني؟

أحست ريم بالحيرة من لهجة جدتها الغاضبة فقالت لها:

– أنا لم أفعل شيئًا خاطئًا.

فقالت لها جدتها:

– وماذا كنتِ تفعلين؟

تحاشت ريم النظر في عينيها وهي تقول:

– لا أفعل شيئًا، أتجول فقط لأتنفس بعض الهواء النقي.

نظرت إليها جدتها غير مصدقة، ثم قالت لها:

– فقط لا تخرجي دون أن تخبريني بذلك، فقد أصابني القلق عليكِ.

أومأت ريم برأسها في إيجاب دون أن تنطق، ثم توجهت ناحية غرفتها، وأثناء الغداء لم تتبادل كلمة أخرى مع جدتها، وقد قررت أن تقص لأسامة ما حدث عندما تقابله في اليوم التالي لتستشيره فيما يجب عليها أن تفعل.

وفي اليوم التالي انتظرت جدتها حتى خرجت كعادتها بصحبة قطها، وتوجهت ناحية موضع التقائها بأسامة، وفي الطريق أخذت تفكر فيما ستقوله له، وعندما لمحته في الأفق جالسًا على ضفاف النهر،

تسارعت خفقات قلبها وهي تسرع الخطى نحوه، واستقبلها هو فرحًا، وأخذت تفكر في الكلام الذي يمكن أن تقوله له ولكنها لم تعرف ما تقول، ولم تشأ أن تقلقه، وقضت بعض الوقت معه ثم بعد ذلك أخبرته أنها ستعود إلى البيت وتركته وغادرت فجأة، وبينما هي تسير بين الأشجار عائدة أحست بمن يمسكها من يدها بقوة، فالتفتت بفزع لتجد جدتها تنظر ناحيتها نظرة جمدت الدماء في عروقها، وقالت لها:

- إذًا هذا هو من تخرجين لمقابلته.

وجذبتها من يدها متوجهة ناحية البيت وقد ألجم الخوف لسان ريم فلم تتكلم طوال الطريق، وعندما وصلتا إلى البيت قالت لها جدتها:

- منذ هذا اليوم لا خروج من البيت، لن أسمح للخطأ نفسه الذي حدث مع أمك أن يتكرر معك.

لم تفهم ريم ما الذي أتى بسيرة أمها في الأمر، فهو يتعلق بها هي، وبدأ الغضب يحل محل الخوف عندها فقالت:

- أنا لم أفعل شيئًا خاطئًا.

فالتفتت الجدة إليها في غضب وهي تقول:

- بل كذبتِ عليّ، من أجل هذا الطفل الشقي.

لم تفهم ريم سر غضب جدتها وأحست أن هناك سببًا لم تفهمه لغضبها، وأكملت جدتها قائلة:

- إن أدركت بعد ذلك أنك خرجتِ لمقابلة هذا الفتى فلن يكون عقابك هينًا، ولن يكون هو أيضًا بمأمن من ذلك العقاب، هل تفهمين؟

بدت جدتها مخيفة وهي تقول تلك الكلمات، فلم تستطع ريم الرد عليها، وركضت في خوف متجهة إلى غرفتها وألقت بنفسها على سريرها وهي تجهش بالبكاء، وظلت طوال ذلك اليوم في غرفتها لم تغادرها حتى غلبها النوم، وفي اليوم التالي لم تتبادل كلمة مع جدتها، بدأت تشعر أنها تخافها ولم تعد تشعر براحة في البيت، ورمقتها الجدة بنظرة صارمة وهي تقول لها:

- لا تغادري البيت وأنا بالخارج مفهوم؟

غمغمت ريم بشيء ما وهي تشيح برأسها بعيدًا، واستمرت الجدة ترمقها بضع لحظات، قبل أن تغادر وتتركها وحدها، والتزمت ريم بالبقاء في البيت فقد خشيت من غضب جدتها، وعرفت أن

أسامة سيقلق عليها ولكنها لم تجرؤ على كسر كلام جدتها والخروج لملاقاته، ومر اليوم عليها أشد ما يكون، واستمر الحال على ذلك عدة أيام، حتى قررت بالنهاية أن تتسلل لمقابلته والعودة قبل معرفة جدتها.

ونجحت بالفعل في ملاقاته ولم تخبره عن أي شيء ولكن قلقها منعها من أن تكون على طبيعتها معه، فكان يشغلها طوال الوقت أن تعرف جدتها أنها خرجت لملاقاته، ولكن مرت عدة أيام دون أن يحدث شيء، حتى عادت في يوم إلى البيت فوجدت جدتها في انتظارها وفي عينيها غضب شديد فسقط قلب ريم بين قدميها، وقالت لها جدتها:

- إذن فقد جرؤت على مخالفة أوامري.

فبكت ريم وقالت لها:

- ماذا تريدين مني؟

فاقتربت منها جدتها وهي تقول:

- أريدك أن تحملي إرثك، الإرث الذي هربت منه أمك للزواج من ذلك الفتى الثري، والذي أخشى أن تهربي منه أنتِ أيضًا، يجب ألا

ينتهي نسلي.

نظرت إليها ريم في حيرة من بين دموعها ولم تنطق، فأكملت جدتها وقد هدأت نبراتها:

- ما زلتي صغيرة لتفهمي، وأمامي طريق طويل لإعدادك حتى تصبحي مؤهلة لحمل الإرث العظيم، كل ما أفعله هو لأجلك، ولكن يغضبني أنك قد تفسدين كل شيء بحماقة طفولية.

ثم اقتربت منها وأمسكت كتفيها وهي تقول لها وقد قررت أن تصارحها بكل شيء:

- أنا أعرف أن ابنتي لم تخبرك شيئًا عن أصلك، ولكنكِ يا طفلتي لستِ فتاة عادية، وكذلك كانت أمك، فنحن نسل عريق من الساحرات نتوارث الأمر منذ عشرات الأجيال، وكل ساحرة يجب أن تورث سحرها إلى طفلة من نسلها، ولقد رفضت ابنتي أن تحمل هذه الإرث العظيم، وهربت منه كي تتزوج من هذا الشاب الأحمق، إلا أن القدر عوضني بكِ، أنتِ من سيرثني.

أصاب كلامها ريم بالذهول فهزت رأسها في قوة وهي تقول والدموع تنهمر من عينيها:

- هذا كذب، لا أصدقك، والدتي لم تكن ساحرة.

فقلت لها:

- والدتك لم تكن لأنها جبنت وهربت، ولكن أنتِ ستصبحين ساحرة، هذا ما سأفعله من أجلك، ويجب أن تكوني شاكرة لذلك.

أحست ريم بالصدمة فلم تتكلم ولم يبدُ على جدتها أنها تمزح فيما تقول، كانت دائمًا ما تشعر أن أمها تخاف من جدتها ولا ترغب في الحديث عنها، والآن بدأت تفهم لماذا، فجدتها ساحرة أو مجنونة، وكلا الاحتمالين مخيفين بالنسبة لها، فأسرعت ناحية غرفتها في خوف وقفزت على فراشها وغطت نفسها بغطائها وهي تبكي وتتمنى لو كان كل ما يحدث حولها كابوسًا سوف تستيقظ منه.

*****

في مساء ذلك اليوم وريم مستلقية في فراشها بين اليقظة والنعاس، سمعت أصواتًا غريبة تأتي من ردهة البيت، فتسللت بهدوء من فراشها وخرجت من غرفتها فوجدت جدتها جالسة وسط دائرة

من شموع تلقي على وجهها ظلالاً مخيفة، وأمامها القط الأسود نائمًا على الأرض وهي تمرر يدها على جسده، وتنامى إلى مسامعها صوت تمتمات غامضة ترددها جدتها، أثار المشهد الغامض رعبها فتراجعت إلى غرفتها قبل أن تشعر بها الجدة، وأخذت ترتجف أسفل فراشها، حتى غلبها النوم.

فتحت ريم عينيها في اليوم التالي وهي تفكر في هذا الكابوس الذي راودها عن جدتها ليقاطع أفكارها مواء القط الأسود الموجود في غرفتها وينظر ناحيتها بنظراته الباردة. فصرخت في فزع، ولكن القط لم يبدُ عليه أي تأثر بصراخها، فخرجت من الغرفة مسرعة، وتبعها القط بخطوات رشيقة، وبحثت عن جدتها فوجدتها جالسة على كرسيها الخشبي تتناول كوبًا من الشاي الساخن، فقالت لها ريم:

- ماذا يفعل هذا القط في غرفتي؟

أخذت الجدة بضع رشفات من كوبها قبل أن تقول:

- هذا القط سيراقبك منذ تلك اللحظة، لن يرفع عينه عنك، وبهذا

سأتأكد أنك لن تفعلي شيئًا آخر من ورائي.

نظرت إليها ريم غير مصدقة، وبعد أن غادرت الجدة وجدت ريم أن القط يتصرف بغرابة، فهو يسير وراءها ويلاحقها في كل مكان، فقررت أن تتخلص منه قبل عودة جدتها، وحاولت ذلك بطرق عديدة، أن تطرده، أن تضربه، أن تحمله بعيدًا عن البيت وتتركه وحده، ولكنه كان يعود في كل مرة، لقد فعلت جدتها شيئًا لهذا القط، شيئًا ليس طبيعيًا على الإطلاق! تذكرت الكابوس المخيف في ليلة أمس، إذًا فهذا لم يكن كابوسًا كما كانت تعتقد! تأكدت ريم أن جدتها ليست طبيعية، وزاد هذا من إحساسها بالوحشة، ولم تحاول ريم في الأيام التالية أن تلتقي بأسامة مطلقًا، فهي تخشى عليه من جدتها، وأصبحت تقضي الوقت في البيت، أو بجواره، تجلس للتأمل وتفكر، غارقة في أحزانها الخاصة.

وفي يوم من الأيام سمعت صوته ينادي اسمها، ورأته أمامها، فانتفضت، وقد خالطت قلبها مشاعر شتى، ما بين الاشتياق إليه، والخوف عليه، والغضب منه لأنه لم يفِ بوعده، وطلبت منه أن يعود أدراجه، والحزن يعتصر قلبها وهي تشاهد ملامحه الحائرة وهو يبتعد عنها، ولم تعد تراه بعد ذلك.

مرت الأيام على ريم كئيبة، ولم تعد تتكلم أو تفعل شيئًا سوى الجلوس والصمت، وأخذت تفكر في الهرب، ولكن كيف وأين تذهب؟ ثم قالت لنفسها أنها إن أرادت الهرب يجب عليها أولاً أن تتخلص من القط الأسود، وأصابتها هذه الفكرة بالحماس، والدافع لفعل شيء ما بدلاً من الجلوس والاكتئاب.

كانت هناك مكتبة خشبية في ردهة البيت، وتبدو الكتب مرصوصة بنظام داخلها متناقضة مع البيت الذي تطوله يد الإهمال، ولم تقترب ريم من تلك الكتب من قبل، ولكنها فكرت أن تلقي عليها نظرة وجدَّتُها بالخارج، لم يبد للقط أن ما تفعله غريبًا فتثاءب وهو يمط قائمتيه الأماميتين، واستلقى أمامها، بينما جلست هي على الأرض وهي تحمل أحد المجلدات القديمة جذبته من المكتبة الخشبية، وقد اصفر ورقه من أثر مرور الزمن عليه.

كانت الأوراق مليئة بالرموز الغريبة، والرسومات التي لم تفهم معناها، وبعد ذلك أدركت أن هذه الكتب تخص السحر، والوصفات السحرية، وأشياء أخرى غريبة، لم يعد لديها شك أن جدتها ساحرة كما أخبرتها، أثار ما قرأته شغفها، وزاد من خوفها من جدتها في الوقت ذاته، فهي تنتمي لعالم آخر غريب عنها، وتمنت

لو تقدر أن تستعيد حياتها القديمة الطبيعية مع والديها، ولكن هذا بدا حلمًا بعيد المنال.

انقضت الأيام التالية وريم مستغرقة بين هذه الكتب، يحركها الفضول والشغف والرغبة في التعلم، وأحيانًا كانت تخبئ كتابًا في غرفتها دون أن تشعر جدتها كي تقرأه مساءً وقد أغلقت على نفسها باب غرفتها، أصبحت ريم مسحورة بهذا العالم الغريب عنها، وانتابتها مشاعر مختلطة ومضطربة ما بين الانبهار والخوف.

وهكذا مرت عليها الأيام وهي مستغرقة في تلك الفنون الغريبة، حتى جاء يوم من الأيام عرفت ريم شيئًا أثار حماسها، فقد عثرت على كتاب وجدت جدتها تخبئه في درج سري في مكتبتها، اكتشفته ريم بالصدفة وهي تفتش بين الكتب، كان كتابًا قديمًا وقد ارتسمت عليه صورة قط أسود قبيح وجمجمة مخيفة، أثار الغلاف خوفها وفضولها في الوقت ذاته، وتمنت أن يكون للكتاب علاقة بالقط الأسود، وهكذا خبأت الكتاب أسفل سريرها حتى المساء، وعندما أحست أن جدتها قد غطت في النوم أخرجت الكتاب من أسفل سريرها وأشعلت شمعة لتستطيع رؤية الكلمات، وانهمكت في قراءة الكتاب وهي تلتهم حروفه، كان الكتاب يتعلق بالخادم

الذي تقتنيه الساحرات والذي عادةً ما يكون قطًا أسود، وأنواع السحر والتعاويذ المختلفة التي يمكنها ممارسته عليه، فهمت ريم أخيرًا السحر الذي مارسته جدتها على القط الأسود، فهو نوع من التعاويذ يسمى سحر التتبع، ومن خلاله تستطيع الساحرة أن تجعل القط الأسود يراقب شخصًا ما ولا يتخلى عن مراقبته أبدًا، أخذت ريم تبحث بحماس عن الحل للتخلص من هذا السحر، فعرفت أن الحل الوحيد للتخلص منه هو أن يقوم شخص ما باقتناء هذا القط بملء إرادته.

لم تستطع ريم النوم في تلك الليلة، وقد أحست بإثارة شديدة عندما أيقنت أن هناك إمكانية للتخلص من مراقبة القط والهرب من جدتها، ولكن ماذا تفعل بعد ذلك؟ راودتها فكرة عجيبة أن تعيش مع أسامة، وتمنت لو أن ذلك ممكنًا، بدا لها ذلك حلمًا أجمل من أن يتحقق.

في الصباح التالي انتظرت ريم حتى خرجت جدتها من البيت كعادتها، وانتظرت بعض الوقت كي تتيقن من ابتعادها عن البيت، ثم حملت القط وغادرت بدورها وهي لا تدري إلى أين تأخذها قدماها، اقتربت من النهر حيث اعتادت أن تلتقي بأسامة ولكنه لم

يكن موجودًا، لم تعرف هل أزعجها ذلك أم أراحها، فهي لا ترغب بتوريطه في الأمر، وهكذا عبرت النهر ـ للمرة الأولى ـ عبر الجسر الخشبي الصغير، وأحست بالخوف لأنها لم تبتعد عن البيت بهذا القدر من قبل، ووجدت نفسها وسط زحام السوق الذي يقع في الناحية الأخرى، لم تعرف إلى أين تأخذها قدماها، كل ما تفكر فيه هو أن تبتعد بأكبر قدر ممكن، وأن تتخلص من القط، ولكن كيف تقنع أحدًا أن يأخذه بملء إرادته، أحست بالضيق من نفسها لأنها لم تفكر في هذا الأمر قبل أن تغادر بيتها، فقد كانت فكرة الهروب مسيطرة عليها بحيث لم يخطر على بالها هذا الأمر البديهي! لن تذهب إلى شخصٍ غريب وتسأله، ما رأيك في الحصول على هذا القط الرائع؟ بدت لها الفكرة سخيفة للغاية، وهكذا بدأت تقلب الأفكار والاحتمالات في رأسها وهي وتسير في شوارع المدينة على غير هدى.

وفجأة خطرت على بالها فكرة أن تبيعه إلى أحد محلات الحيوانات الأليفة، وبذلك سيأخذه شخص ما بإرادته وتتخلص هي منه، أعجبتها الفكرة، ولكنها نظرت إلى القط الأسود القبيح وشكت إن كان هناك من سيرغب بشرائه ولو كان بسعر زهيد، ولكن عليها

أن تحاول، وبالسؤال استطاعت أن تصل إلى أحد المحال المختصة في بيع الحيوانات الأليفة، وبعد تبادل عدة جمل مع البائع استطاعت بيعه وبثمن زهيد، وخرجت من المحل وهي تشعر بالحرية أخيرًا، لقد تخلصت منه.

سارت ريم وسط شوارع المدينة وهي تشعر بالحيرة، لا تدري إلى أين يمكن أن تذهب، هل تبحث عن أسامة، خشيت أن تورطه في أمر أكبر منه، كانت تسير على غير هدى، لا يوجد مكان محدد تذهب إليه، فقط تسير حيث تأخذها قدماها، ولم تتوقع ما حدث بعد ذلك، فقد وجدت من يمسك يدها بقوة، فصرخت بألم وهي تنظر لمن يمسك بها، التقت عيناها بعيني جدتها الغاضبة وهي تقول لها:

- يا لكِ من طفلة عاقة.

فقالت لها ريم وهي تتألم:

- كيف عثرتي عليّ؟

جذبتها جدتها من يدها لتسير بجوارها وهي تقول:

- لقد عرفت أنك ستتخلصين من القط، لقد رأيت ذلك، وكنت

أود أن أصل إليكِ قبل أن تتخلصي منه، أنتِ أذكى مما توقعت، ولكن هذه إشارة جيدة، فهذا معناه أنكِ ستصبحين ساحرة ماهرة وسأكون فخورة بكِ.

وبرغم غضب جدتها لم تخبرها ريم أين ذهبت بالقط، فجذبتها جدتها عائدة إلى البيت وهي تقول لها:

- سأحرص على ألا تغادرين البيت دون علمي بعد هذا اليوم.

لم تجبها ريم وظلت صامتة، وسارت معها بغير إرادتها حتى وصلا إلى البيت وأحست ريم بالاكتئاب عندما عادت إليه مرة أخرى، فركضت إلى غرفتها لتلقي بنفسها على فراشها وهي تجهش بالبكاء.

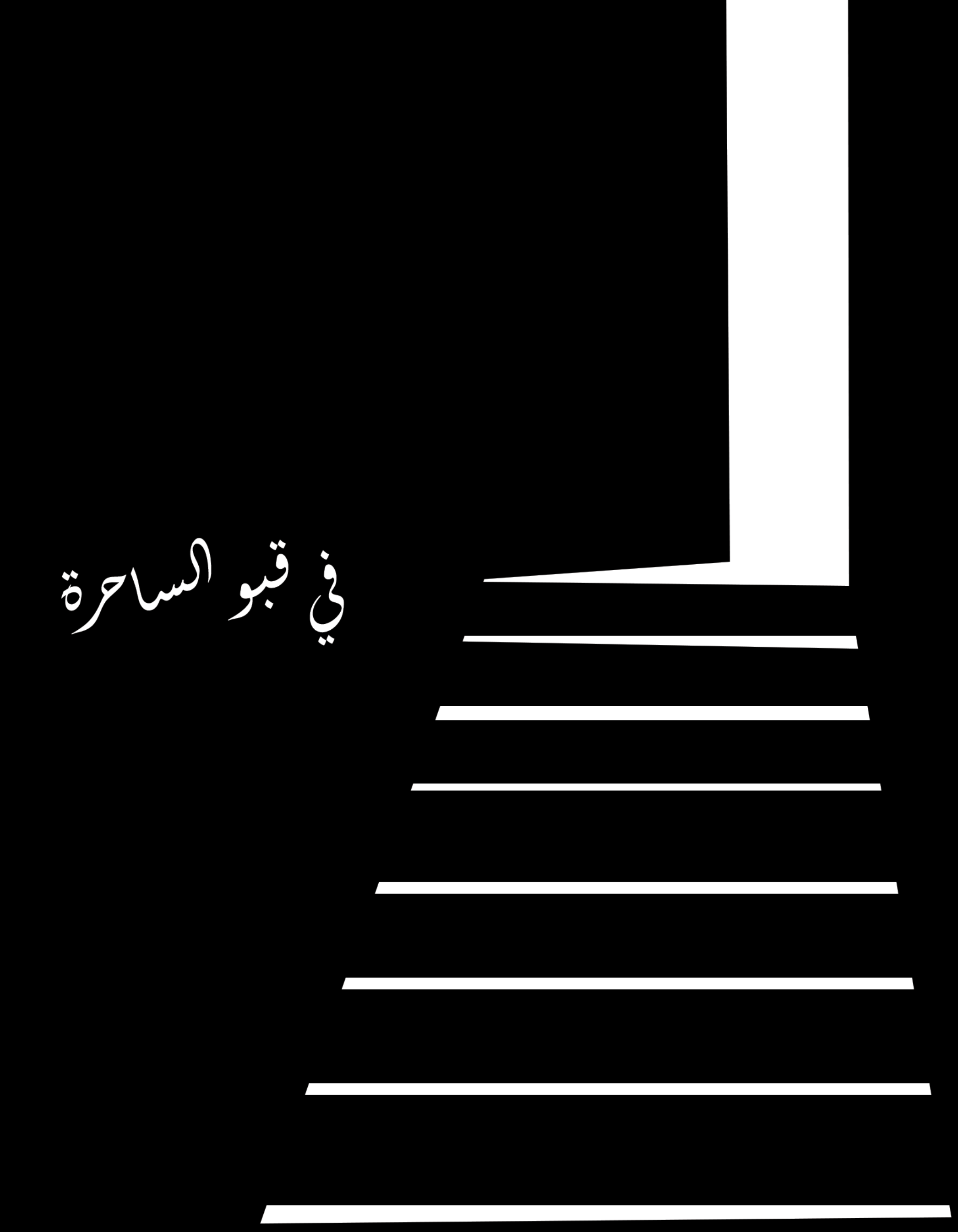
ظلت ريم في غرفتها ولم تغادرها وهي ترغب بالانفراد بنفسها، ولم تحاول جدتها الحديث معها حتى حلول المساء، فنادت عليها لتناول الطعام، فتجاهلت ريم النداء ولكن جدتها ألحت عليها فقامت بتثاقل، وجلست على الطاولة الصغيرة أمام جدتها والطعام الساخن يتصاعد منه البخار، وبدأت تأكل بغير شهية حقيقية ثم لاحظت أن جدتها ظلت طوال الوقت صامتة تتأملها وهي تأكل دون أن تشاركها الطعام، وخمنت ريم أن هذا عتاب منها

لأنها تخلصت من القط، فلم تكترث واستمرت في تناول الطعام وحدها، ولكن الأمر لم يقتصر على تلك الوجبة، فقد أصبحت عادة جدتها في الأيام التالية ألا تأكل معها، ولم تكترث ريم لذلك، واعتادت على الأكل وحدها، ولكن بعد مرور عدة أيام بدأت ريم تشعر بضعف شديد، وأصبحت مغادرتها للفراش وحركتها تتطلب مجهودًا كبيرًا، وبدأت جدتها تحضر لها الطعام حتى غرفتها وأعدت لها دواءً مخصوصًا قالت لها أنه سيشفيها، وبالرغم من عدم ثقة ريم في جدتها، لم تقدر على معارضتها، وهكذا ناولتها جدتها الدواء ثم أخذت تمسح على شعرها وهي تقول بنبرة عجيبة:

- لا تقلقي، سينتهي كل شيء قريبًا.


أسرار الكتب


أسرار الكتب


في قبو الساحرة


أسرار الكتب

[٦]

في قبو الساحرة

استعاد سيف وعيه ببطء، وهو يشعر بألم شديد في رأسه كألف مطرقة تهوي على صدغيه، ما الذي يحدث؟ تردد هذا السؤال في عقله وهو يحاول أن يستوعب ما يدور حوله، فتح عينيه ليرى أين هو فلم يستطع رؤية شيء أمامه في البداية، فأغمض عينيه مرةً أخرى وهو يحاول أن يتذكر ما حدث له، فتذكر القط والطفلة ريم والمرأة العجوز وحديثه معها، ولكن ما الذي أتى به إلى هنا؟ أخذ يغمض عينيه ويفتحهما عدة مرات قبل أن يدرك أن المكان مظلم ظلامًا دامسًا، هل حل المساء بالفعل! كم مضى عليه من وقت في هذا المكان؟ حاول أن يتحرك فأدرك أن يديه وقدميه مقيدتان

إلى السرير الذي ينام عليه، فانتابه هلع شديد وهو يحرك يده في حركات عنيفة في محاولة لفك قيده، ولم تزده تلك المحاولات إلا ألمًا في معصميه وكاحليه، بدأت عيناه تعتادان على الظلام، ومن خلال ضوء خافت للغاية يتسلل من مكانٍ ما، أدرك أنه محبوس في غرفة ضيقة للغاية، ذات رائحة عطنة، قبو على الأرجح! قفزت هذه الفكرة إلى رأسه فأحس برهاب الأماكن الضيقة والمغلقة يستولي على عقله، فصرخ قائلاً في هلع:

- هل من أحد هنا؟

لم يحصل على أية استجابة، فردد نداءه عدة مرات وكل مرة لا يجاوبه إلا الصمت المطبق فصاح في غضب:

- اللعنة عليكم.

حاول أن يستجمع أعصابه ويهدئ نفسه، فاسترخى للخلف وهو يغلق عينيه، وبدأ يشحذ حواسه الأخرى، الصمت مطبق لا يستطيع سماع أي شيء، الرائحة الكريهة العطنة تنبعث من كل مكان حوله مما يزيد من معاناته، ولكنه أحس بنسمة هواء خفيفة تأتي من مكان ما، بحث بعينيه حتى رأى فتحة صغيرة يتسلل منها

ضوء القمر الباهت، وبدا له المكان أكثر ضيقًا من ذي قبل، وشعر بضيق شديد في تنفسه.

وفجأة قطع أفكاره صوت الباب وهو يُفتح، ومع انفراج الباب تسلل الضوء إلى المكان، تتبعه هيئة بشرية تحمل مصباحًا زيتيًا قديمًا مشتعلاً، لم يتبين سيف هيئتها لأنها تقف وراء الضوء ولكنه أدرك بحدسه أنها العجوز ثم سمع صوتها يقول:

– ها أنت قد استيقظت أخيرًا.

كانت قد اقتربت منه بما يكفي ليتبين ملامحها إلا أن الهواء الذي يأتي من الفتحة الصغيرة جعل لهب المصباح الزيتي يتراقص ملقيًا على وجهها ظلالاً مخيفة، فابتلع ريقه في توتر قبل أن يقول:

– ماذا حدث لي؟ هل خدرتني؟

فقالت العجوز بسخرية:

– أعتذر يبدو أني لم أخبرك بعد أنني ساحرة.

لم يفهم سيف ما تقصده ولكنه أحس بالسخرية في كلماتها مما أثار غضبه وظهر السخط على ملامحه وهو يقول:

- لا أصدق أنني خُدعت بكلماتك الكاذبة ودموعك الزائفة، أنتِ ممثلة بارعة بالفعل.

وفي تلك الأثناء كان يحاول أن يجد طريقة للتخلص من قيوده وهو يتساءل بداخله عن القوة التي تملكها هذه العجوز لتقيده بهذا الإحكام.

أما العجوز فقد أشارت بإصبعها نفيًا وهي تبتسم ببرود قائلة:

- لم يكن كذبًا يا صغيري، بل لم أخبرك سوى نصف الحقيقة، فكل ما ذكرته عن ابنتي حقيقي، وأما السبب الحقيقي الذي دفعها لمفارقتي والهروب من البيت، فهو أنها لم ترد أن تحمل إرث عائلتنا، لم ترد أن تصبح ساحرة.

ثم قالت بلهجة تسلل إليها الغضب وهي تسترجع الذكرى الكريهة:

- فضلت الهرب مني والزواج من هذا الثري، على أن تكمل مسيرتي وتصبح ساحرة عظيمة مثلي، تريد أن تحطم مسيرة عشرات الأجيال من السحر.

ثم ضمت قبضتها اليمنى في الهواء وقالت:

- ثم جاءت ابنتها وظننت أن هذه هي فرصتي لتعويض ما أضاعته ابنتي، إلا أنني وجدتها عاقة مثل أمها، وترفض أن تصبح ساحرة، ولكني أعرف كيف أجبرها على ذلك وأجعلها تنسى ذلك الطفل حتى وإن اضطررت للتخلص منه.

تأكد سيف أن هذه العجوز غير متزنة على الإطلاق، وأنها خطرة جدًا سواء أساحرة كانت أم لا، فقال لها مستجمعًا أعصابه:

- وأنا، ما دخلي في كل هذا؟

نظرت إليه في شرود وهي تقول:

- أنت؟

ثم استعادت ابتسامتها الباردة وهي تقول:

- أنت لا دخل لك في أي شيء، وصدقني لا أحمل أي ضغينة ضدك على الإطلاق، أنت مجرد رجل غريب أوقعه حظه العاثر في أمور أكبر من إدراكه، أكبر من العالم المحسوس الذي يلمسه، هناك غلاف رقيق يعمي عيونكم عن أشياء تحدث تحت أنوفكم ولا ترونها، ولكن كل شيء سينكشف لك الآن.

فقال لها بنبرة سائلة متوترة:

-ولم لا تتركينني أرحل؟

فقالت بنبرة ضاحكة:

- ترحل؟ أنت لا تستطيع أن ترحل هكذا بكل بساطة بعد أن عرفت كل هذا.

ثم تابعت بابتسامة خبيثة:

- وربما أخبرتك بكل هذا لأنني لا أنوي أن أتركك ترحل بالفعل، سأحتاج إليك في الطقس النهائي لتحويل حفيدتي لساحرة.

لم يرتح لكلماتها الأخيرة فقال لها وهو مستمر بمحاولة فك قيوده:

- ماذا تعنين بالطقس النهائي؟

ففكرت قليلاً ثم قالت:

- لا بأس أن أخبرك بالمزيد لأروي فضولك البشري النهم، فأنت في النهاية لن تغادر المكان وستشهد كل شيء بعينك.

ثم قالت وضوء المصباح مستمر في التأرجح:

- لقد قررت تحويل حفيدتي لساحرة رغمًا عنها لكيلا ينقطع نسلي من الساحرات، لذا أعطيها كل هذه الوصفات تمهيدًا للتغير

الذي سيطرأ عليها، ولكن التحول النهائي يتطلب أضحية أخيرة للشياطين.

ثم مالت عليه وقد ألقى ضوء المصباح الزيتي على وجهها ظلالاً مخيفة وقالت بنبرة مخيفة كفحيح أفعى:

- أضحية بشرية.

ارتجف جسد سيف وشعر بخوف دفعه لأن يقول:

- ولماذا أنا بالذات؟

فقالت وهي تهز كتفيها بلا مبالاة:

- أنا لم أتعمد اختيارك فأنت كما أخبرتك مجرد بائس سيء الحظ، لقد كنت أنوي في البداية استخدام ذلك الطفل الصعلوك اللزج الذي تطلق عليه حفيدتي "أسامة"، ولكن عند التفكير مرة أخرى لا شك أن الجميع سيفكر في اختفائه، أما أنت فلا أحد يعرف أنك أتيت إلى هنا ولن يثير اختفاؤك أية شكوك.

ثم أمسكت بالمصباح واستدارت مبتعدة عنه وهي تقول:

- لا تقلق لن تنتظر كثيرًا، فغدًا يوم اكتمال القمر، وعند منتصف

الليل ستكون حفيدتي قد استعدت لتصبح ساحرة وسأكمل الطقس بالأضحية.

ثم التفتت إليه قبل أن تغلق الباب وقالت له:

- استمتع باليوم الذي تبقى لك.

أطلقت ضحكة ساخرة أخيرة وهي تغلق الباب وراءها بجذبة قوية رددت صوت ارتطام عاليًا، ثم عاد الظلام الدامس ليصبغ المكان بصبغته مرة أخرى.

انطلق عقل سيف يفكر بأقصى سرعة في طريقة للخلاص من هذا المأزق، بدأ يحاول فك القيود مجددًا، ولكن محاولته فشلت فشلاً تامًا، إلا أنه كان مصممًا على الهرب من هذا المكان بأي ثمن، فهذه العجوز قد تكون ساحرة وقد تكون مخبولة؛ لا يهم، ففي كلتا الحالتين حياته في خطر إن ظل على هذه الحال، بدأت الحبال تدمي يديه وقدميه، وسال الدم الساخن يلوث كل شيء، ولكن الهلع والرهاب الذي يعانيه أعميا عقله عن الألم، لم يدرك كم من الوقت مر عليه في هذا الظلام الدامس وهو يحاول الخلاص من قيوده بلا فائدة حتى فقد الأمل تمامًا، واستسلم مرة أخرى لقيوده وإحساسه

باليأس وهو يغلق عينيه وقد بدأ الألم يتسلل إلى عقله.

وفجأة انتبه على صوت فتح الباب وهذه المرة دون ضوء المصباح الزيتي، ومن خلال الضوء الخفيف الباهت الذي يأتي من خلف الباب لمح ظل شخص يدخل الغرفة، كان أقصر من العجوز، ثم سمع الفتاة تقول له بصوت متعب:

- أنت في خطر، يجب أن تهرب.

إنها حفيدة العجوز، الفتاة الغامضة التي ظل طوال اليوم يبحث عنها، ها هي أمامه، ثم بدأت تحاول فك قيد يده اليمنى، ولكنه كان مقيدًا بإحكام شديد، فأخرجت من بين طيات ملابسها سكينًا صغيرًا وبدأت في قطع الحبل، فقال لها سيف في قلق:

- احترسي وأنتِ تستخدمين هذا الشيء.

بنهاية كلماته كان الحبل قد انقطع، فأخذ منها السكين بيده اليمنى وقطع قيد يده اليسرى ثم قيود قدميه، وتحرر أخيرًا، وقد أحس ببهجة غامرة وهو يتحرك بحرية، مدت ريم يدها وهي تقول له:

- سكيني من فضلك.

تردد قليلاً وهو يقول:

- هذا سيكون خطر مع طفلة مثلك.

ظلت تمد يدها وهي تنظر إليه فتنهد في استسلام وأعاد لها السكين قائلًا:

- لقد أنقذتي حياتي بها على كل حال.

أعادت السكين إلى طيات ملابسها وخبأته جيدًا، ثم قالت بنبرة آسفة:

- أعتذر لك، لم أقصد أن تتورط في الأمر.

أحس سيف بالشفقة تجاه ريم التي تحمل همومًا تفوق سنوات عمرها القليلة وقال لها:

- لا عليكِ فلستِ أنتِ المذنبة في كل ذلك، هناك أشياء كثيرة تحدث حولنا في هذا العالم ولا يكون لنا اختيار فيها، لا يكون لنا إلا أن نندفع مستسلمين مع التيار نسير حيث يجرفنا ونستقر حيث يقذفنا، أنتِ ضحية لا جانية يا طفلتي الصغيرة.

فقالت بخوف:

- ولكن جدتي تريد إجباري على التحول لساحرة وأنا أرفض

ذلك، ولكنها منذ مدة تجبرني على شرب سوائل غريبة بزعم أنها أدوية لعلاجي من مرضي، رغم أنني أشعر أن حالتي تسوء منذ بدأتُ في تناول هذه الأدوية الغريبة.

ثم أكملت بلهجة ملأها الرعب:

- ثم أخبرتني عن هذا الطقس المخيف.

امتلأت عيناها بالدموع فقالت بصوت باكٍ متقطع:

- لا أريد .. أن يموت .. أحد .. بسببي.

أحس سيف بالشفقة ناحيتها فقال لها:

- لا تقلقي لن يموت أحد، لن أسمح بأن تؤذي جدتك أحدًا.

عندما أتى على ذكر جدتها تلفتت حولها في خوف ثم قالت:

- قد تعود في أي وقت، يجب أن تغادر على الفور.

لم يرغب سيف في ترك تلك الفتاة الصغيرة وحدها ولكنها قالت في رجاء:

- أرجوك، اهرب.

وهكذا قادته ريم عبر خطوات الدرج ليجد نفسه في الممر الضيق

ومنه عبر إلى الردهة، وفتحت له ريم الباب الأمامي ليخرج أخيرًا من هذا البيت الملعون، ولكنه وجد القط الأسود أمامه وهو يصدر فحيحًا غاضبًا مقوِسًا ظهره فركله سيف بقدمه في غل ثم أخذ يركض مبتعدًا عن البيت بأقصى سرعته.

وهكذا وجد سيف نفسه يعبر النهر عبر الجسر الصغير، وأخذ يركض مخترقًا السوق المظلم الذي يبدو صامتًا كالقبور وقد خلا من الباعة والزبائن، وصوت حشرات الحقل يأتي من ناحية النهر، بينما صوت عواء كلب ما يأتيه من بعيد، ولم يرَ أي إنسان على الإطلاق أو مخلوق حي، سوى قطين يتشاكسان على بعض مخلفات السوق وقد قفزا مبتعدين عن طريقه عندما وجداه يركض كالمجنون.

رأى سيف ضوءًا بعيدًا قادمًا من بعض نوافذ البيوت التي تظهر في الأفق، فأخذ يفكر أن هناك أناس آمنين في بيوتهم لا يشعرون بما يحدث معه وأحس بالحسد ناحيتهم وتمنى لو كان في بيته الآمن الدافئ في تلك اللحظة، استمر في الركض حتى وصل إلى سيارته التي كانت قابعة في المكان الذي تركها فيه صباحًا، وبسرعة فتش جيبه وحمد الله أن المفتاح ما يزال معه، وبأيدٍ مرتبكة فتح باب السيارة وأدار المحرك، وأطلقت عجلات سيارته صوت صرير

حادًا وهي تنطلق بأقصى سرعة مبتعدة عن المكان وهو لا يصدق أنه نجا أخيرًا من هذا الجحيم.

وهكذا انطلق سيف بسيارته مسرعًا في ذلك الوقت المتأخر حيث يخلو الطريق من السيارات والمارة، مخترقًا الشوارع والطرقات بسرعة جنونية، ومن وقت لآخر كان يقابل إشارة المرور في طريقه ولكنها كانت تستمر في الوميض باللون الأصفر المميز، شق ضجيج سيارته السكون طوال الطريق إلى بيته حتى وصل أخيرًا، فركن سيارته في المرأب على عجالة، وفتح باب بيته ثم أغلقه وراءه بالمفتاح وأحكم إغلاقه بالمزاليج ثم تأكد من إغلاق الباب الخلفي جيدًا وأغلق كل النوافذ في بيته، وجلس في غرفته على سريره وقد ضم ركبتيه إلى صدره ووضع غطاءً عليه، وهو يشعر بالصدمة غير مصدق ما حدث له.


أسرار الكتب

ظلال الساحرات




أسرار الكتب

[٦]

ظلال الساحرات

أخذ أسامة يسير وراء سيف يتتبعه بحذر، فلم يقدر على أن يتركه يذهب إلى بيت ريم وحده، فهو يشعر بالقلق الشديد ويود أن يعرف ما الذي سيصل إليه سيف ببحثه، كل ما أراده هو أن يطمئن على ريم، وشاهد سيف وهو يطرق الباب حتى انفتح، ثم شاهده وهو يدلف من الباب بتردد، فجلس على مقربة من البيت منتظرًا ما سيحدث بعد ذلك، مر وقت طويل دون أن يظهر سيف مرة أخرى مما أصاب أسامة بالقلق، كان يعرف أنه تأخر كثيرًا وربما تكون أمه قلقة عليه كثيرًا الآن، ولكنه لا يستطيع المغادرة دون الاطمئنان على ريم وسيف، وفكر أن يحاول دخول البيت بنفسه لمعرفة ما حدث،

وبينما هو يزن الأمر في عقله، رأى جدة ريم تخرج من البيت وحدها وتتوجه ناحية الأشجار الكثيفة، فانتابته حيرة شديدة، هل ينتظر سيف في موضعه أم يتبع العجوز؟ وفي النهاية حسم أمره وقرر أن يتبعها؛ فقد أثار الأمر فضوله، وبالفعل سار وراءها وهي تسير وسط الأشجار إلى ناحية لم يذهب إليها هو من قبل، كانت الأشجار تزداد كثافة وأصبح لا لا يكاد يرى شيئًا أمامه، لم يحدث من قبل أن توغل هو بهذا المقدار، فكان يتحسس طريقه بحذر، حريصًا في الوقت ذاته ألا تشعر العجوز أنه يتبعها، وتعجب وهو يراها تسير بثقة وثبات عجيبين، وتساءل كيف تعرف طريقها وسط تلك الأشجار؟

وبعد سير طويل توقفت العجوز فجأة، فتوقف أسامة في موضعه، وهو يفكر لماذا توقفت، وفجأة أدرك وسط الضوء الباهت أنها ليست وحدها، وأخذت تمتم بكلمات غريبة لم يفهم معانيها، ومن ظلال الغابة الكثيفة ظهرت ثلاث نسوة عجائز أخريات ذوات وجوه قاتمة وجلد مجعد وملامح منفرة، وقالت أحداهن:

- لماذا استدعيتِنا؟

أدرك أنها تخاطب جدة ريم والتي قالت:

- يبدو أنني عثرت على أضحية بشرية أخيرًا.

قالت ذلك وهي تقهقه بصوت رفيع مما أثار القشعريرة في جسد أسامة، فيما بدت بهجة وحشية على وجه العجائز الثلاثة وقالت أخرى:

- غدًا هو يوم اكتمال القمر، فهل أنتِ مستعدة لإكمال جانبك من الصفقة؟

فهزَّت جدة ريم رأسها وهي تقول:

- كل شيء جاهز، الأضحية ستتم في موعدها.

هنئت الساحرات الأخريات الجدة مقدمًا على تحول حفيدتها لساحرة، وأسامة يسمع كل ذلك غير مصدق وهو يتمنى أن يكون كل هذا كابوسًا، ولكنه كان يدرك أنه الواقع، فقرر أن يهرب قبل أن تنتبه النسوة العجائز إليه، ولكنه في أثناء تحركه مبتعدًا ارتطم بجذع شجرة قديم ملقى على الأرض، فسقط مصدرًا دويًا عاليًا وسط السكون، فالتفت برعب ليجد أن الساحرات قد انتبهن إليه وقالت إحداهن بصوت كالفحيح وهن يقتربن منه:

- دخيل.

وفي تلك اللحظة أحس أسامة أنه يغيب عن الوعي، وسقط على الأرض مغشيًا عليه.

*****

قضى "سيف" الليل كله في سريره دون أن يقترب النوم من جفنيه وهو يتحفز لكل صوت بسيط يسمعه، وكأن الساحرة أو قطها الأسود سوف يقتحمان بيته في أية لحظة، وأحيانًا كان يمر بأحلام اليقظة، فيرى خيالات تمر أمام عقله، لم ينقذه من الجنون إلا الصباح التالي وإشراق الشمس مرة أخرى.

نظر سيف في ساعته ليكتشف أن موعد العمل قد اقترب، إلا أنه لم تكن لديه رغبة في الذهاب إلى العمل هذا اليوم، فأجرى اتصالاً هاتفيًا ليعتذر عن العمل متحججًا بأنه مريض، وساعده على أن يكون مقنعًا أن صوته كان متعبًا بالفعل من أثر الإرهاق والسهر طوال الليل، وبعد ذلك قام سيف من موضعه وقرر أن يأخذ حمامًا

ساخنًا سريعًا يغسل به آثار ذلك اليوم، ثم أعد لنفسه إفطارًا خفيفًا رغم فقدانه للشهية الحقيقية فلم يتناول إلا لقيمات قليلة، وبعد ذلك أخذ يتشاغل عن التفكير بمشاهدة التلفاز ولكنه كان يحدق في الشاشة بنصف عقل بينما النصف الآخر مستمر في التفكير، وحتى عندما حاول أن يقرأ كتابًا شعر أنه يحدق في صفحات بيضاء فارغة، ولم يستطع التركيز في القراءة وتمنى لو كان عقله صفحة بيضاء دون أفكار.

وعند حلول المساء كان سيف مستلقيًا على الأريكة والتلفاز يعمل دون أن ينتبه إلى ما يُعرض على التلفاز، فقط مجرد ضوضاء تؤنسه، كي يشعر أنه ليس وحيدًا، كان التلفاز يعمل على القناة المحلية، وفجأة تم قطع الأخبار لإذاعة خبر عن طفل من المدينة مفقود، دقق سيف النظر في صورة الطفل ليجد أنه أسامة الطفل الذي دلّه على بيت ريم، فاعتدل في جلسته وهو يدقق في ما يقوله المذيع، الطفل مفقود منذ الأمس ولم يعد إلى بيته فقامت أمه بإبلاغ الشرطة التي كثفت البحث عنه، دون أي أثر، وعلى من يعثر عليه التوجه إلى أقرب قسم شرطة ... إلخ.

أحس سيف أنه يكاد يصاب بالجنون، هل تبعه الطفل؟ هل وقع

في قبضة الساحرة؟ ماذا لو آذت هذا الطفل الصغير؟ هل يبلغ الشرطة؟ من سيصدق حكاياته عن الساحرة والقط الأسود! لا شك أنهم سيعتبرونه مجنونًا، تذكر أن العجوز أخبرته أن الأضحية ستكون عند اكتمال القمر في منتصف الليل، لن يستطيع أن يظل مكانه منتظرًا أن يحدث شيء للطفل الصغير، ودفعه ذلك إلى أن يأخذ قرارًا مجنونًا، سيذهب اليوم إلى بيت العجوز ليتسلل ويستكشف الأمر مرة أخرى بنفسه، كان أمرًا مجنونًا بالفعل ولكنه أفضل من أن يجلس ويفكر فيصاب بجنون حقيقي، أو هكذا أقنع نفسه.

وهكذا وجد سيف نفسه يخرج سيارته من المرأب ويسير في الطريق وحيدًا مرة أخرى، يكاد قلبه أن يقفز من صدره من سرعة خفقانه وهو يفكر فيما هو مقبل عليه، إنه عائد إلى عش الزنابير بنفسه، كاد أن يتراجع عن قراره عدة مرات طوال الطريق، ولكن خوفه على هذا الطفل المسكين كان يدفعه إلى الاستمرار في طريقه، وفي النهاية كان أمام الجسر الذي يعبر النهر، فقرر أن يكمل سيرًا على الأقدام لكيلا ينبئ صوت محرك السيارة عن وجوده، فترجل من سيارته وأغلقها بالمفتاح ثم بدأ سيره ناحية بيت الساحرة وقد انطبع

الطريق في ذهنه، لم يسر كثيرًا حتى وجد نفسه ينظر للبيت القديم من بعيد، القمر المكتمل في ذلك اليوم ألقى ضوءه على البيت الذي بدا ساكنًا كبيت للأشباح، أحس سيف بتوتر شديد وهو يفكر في أن يعود أدراجه، ولكنه قال لنفسه:

- لا مجال للتراجع الآن.

كان عليه أن يجد طريقة للدخول إلى البيت دون أن يشعر به أحد، لم يكن الباب الأمامي خيارًا متاحًا في تلك اللحظة، فبدأ يدور حول البيت وهو يفكر في الفتحة التي شعر بها وهو مقيد بالقبو، لحسن حظه كانت الفتحة موجودة، ولكنها كانت ضيقة للغاية، يمكنه أن يعبر منها بصعوبة، فتردد قليلاً بسبب رهاب الأماكن الضيقة الذي يعاني منه، ولكنه سمع صوت صراخ يشق سكون الليل، جمد الدماء في عروقه، فانتفض في غضب قائلاً:

- اللعنة!

ثم حشر جسده في الفتحة الضيقة، وهو يدفع بنفسه حتى سقط على أرض الغرفة التي كان مقيدًا بها، فاعتدل واقفًا على الفور، كان الظلام دامسًا ولكن عينه بدأت تعتاد على الضوء الباهت الخفيف

القادم من النافذة بفضل اكتمال القمر.

اقترب سيف من الباب وفحصه فلم يكن مغلقًا بإحكام، وبعد عدة دفعات قوية استطاع فتحه، ثم أخذ يصعد الدرج الخشبي لأعلى بخطوات حذرة كي لا يصدر صوتًا ينبئ عن وجوده، وهكذا وجد نفسه يسير في الممر الضيق وضوء غريب متراقص يأتي من ناحية ردهة البيت، أدرك سيف أنه ضوء شموع، فاسترق النظر ليجد أغرب منظر تقع عليه عينه.

كانت الجدة تقف في منتصف الغرفة وقد فردت ذراعيها وهي تتمتم بكلمات غامضة لم يفهم سيف معناها، وقد ارتسمت أسفل قدميها نجمة خماسية حمراء، وعند كل طرف من أطراف النجمة الخماسية، تم تثبيت شمعة مشتعلة يتراقص لهيبها ملقيًا ظلالاً أثارت الرهبة في نفس سيف، ورأى القط الأسود موليًا ظهره له وهو ينظر ناحية العجوز وهي تقوم بطقوسها المخيفة، ولكن ما أثار رعبه هو منظر ريم وأسامة مقيدين إلى الكرسيين الخشبيين، وأسامة فاقدًا الوعي بجسد تملأه الجروح، فأدرك سيف حينها سر الصرخات التي سمعها، وأدرك الطريقة التي رسمت بها العجوز تلك الدائرة الحمراء، فأصابه الغثيان، ولكنه تمالك نفسه، يجب

عليه إنقاذ الطفلين من تلك الساحرة المجنونة.

تقدم سيف ببطء ناحية ريم، التي لمحته بطرف عينها فالتفتت ناحيته بحركة حادة، وأحست بالسعادة لرؤيته فيما وضع هو سبابته على شفتيه إشارةً لها أن تلتزم الصمت، ومد يده إلى السكينة التي تخبئها بين ملابسها ويعلم هو موضعها جيدًا، وقام بتمزيق قيودها، والعجوز مستمرة في ترديد تعاويذها الغامضة، دون أن تشعر بسيف، ولكن القط انتبه إليه، فقفز ناحيته وهو يموء بصوتٍ عالٍ نبه العجوز إليه فالتفتت في غضب، فيما نشب القط مخالبه في جسد سيف، ولكن سيف كان يملك سلاحًا هذه المرة، فغاص بنصل السكين في عنق القط الذي صرخ في ألم، فيما تناثرت الدماء منه على كل شيء في الغرفة، ولوثت النجمة الحمراء فصرخت الساحرة في ذعر:

- لا!

ثم قفزت ناحية سيف ولطمت يده بقوة هائلة لتسقط السكين من يده فتأوه في ألم، فيما كان القط يلفظ أنفاسه الأخيرة على الأرض، والساحرة تنظر ناحيته في حزن، ثم التفتت إلى سيف والغضب

يشتعل في عينيها قائلة:

- أنت! أنت تفسد كل شيء! أي رياح خبيثة ألقت بك في طريقي.

تقدمت الساحرة للأمام، وهي ترفع يديها أمام وجهها وهي تقترب من سيف الذي تراجع في خوف إلى الخلف حتى أحس بظهره يلتصق بالجدار ولم يعد أمامه مفر، ونظر في خوف إلى الساحرة التي تتقدم منه وهي تمتم بكلمات غامضة، فأحس سيف أنه غير قادر على الحركة أو الدفاع عن نفسه، وفجأة بدأ الظلام ينتشر حوله فلم يعد يرى الغرفة حوله أو يرى ريم أو أسامة، فلم يكن أمامه إلا الساحرة التي اشتعلت عيناها بلونٍ أحمر فكانت الشيء الوحيد المنير وسط تلك الظلمة الهائلة، وحاول سيف أن يتكلم أو يصرخ أو يهرب، ولكنه أحس أن أطرافه لم تعد تطيعه، وأخذ يقاوم من أجل بعض الهواء، وبدأ شهيقه يصبح ذا صوتٍ عالٍ، وأحس أنه يختنق وقد ازرقّ وجهه وقالت له الساحرة بصوت عميق مخيف:

- يجب أن تدفع ثمن ما فعلته، كانت أمامك فرصة أن تنجو بحياتك، ولكنك عدت إلى الموت بقدميك.

استسلم سيف لمصيره وقد أحس أنه موشك على الموت، وفجأة

اتسعت عينا الساحرة وقد انطفأ البريق الأحمر في عينيها، وبدأ الظلام ينقشع من حوله وعادت الغرفة إلى طبيعتها مرةً أخرى، ورأى العجوز تستدير وراءها غير مصدقة، مولية ظهرها لسيف، فرأى سكين ريم تخترق ظهرها حتى المقبض، وتقدمت العجوز بضع خطوات تحاول الإمساك بريم التي تراجعت للخلف في فزع، قبل أن تسقط العجوز على وجهها في منتصف الدائرة، فقال لها سيف:

- لما فعلتي ذلك؟

فقالت ريم وهي تنظر إلى يديها وتبكي:

- أنا لا أريد أن تؤذي جدتي أحدًا بسببي، لقد أصيبت بالجنون التام، وما فعلته بك وبأسامة، كان على إيقافها.

ثم رفعت يديها إلى عينيها المغرورقتين بالدموع فاقترب سيف منها وأحاطها بذراعيه، واحتضنها بحنان أبوي وهو يقول لها بصوت حزين:

- لا تقلقي كل شيء سيكون بخير.

فجأة أخذت الدائرة الحمراء تلمع بضوء مخيف، وتردد صوت

ضحكات مجنونة في الهواء مجهولة المصدر، والتفّ الضوء حول ريم وأخذ شعرها يتطاير حولها كأنها في قلب إعصار، فتمسك سيف بها وهو يشعر بخوف شديد عليها، وفجأة تحولت النجمة إلى ألسنة من اللهب، وريم تصرخ بألم، وسمع سيف صوت عميق غير بشري يأتي من قلب اللهب يقول:

- اكتملت الأضحية.

وأحس سيف بقوة هائلة تجذب ريم من بين يديه، فحاول أن يتمسك بها ولكنه شعر بها تختفي في قلب ألسنة اللهب، فقالت له ريم وهي تستسلم للقوة التي تجذبها:

- أتمنى أن نلتقي مرة أخرى.

وفجأة اختفت ألسنة اللهب كما ظهرت فجأة، وباختفائها لم يعد هناك أثر لريم أو جثة الجدة أو القط الأسود، كما اختفى كل أثر للدماء والنجمة الحمراء.

وقف سيف مذهولاً أمام ما حدث للتو، ثم تنبه إلى أسامة الغارق في اللاوعي بسبب ما فقد من دماء، ففك قيوده وحمله على كتفه مبتعدًا عن البيت الملعون متوجهًا إلى موضع الجسر حيث ترك سيارته،

ووضع جسد أسامة في الكرسي الخلفي برفق، وقاد السيارة بعقل شبه زائغ لا يدري ما يجب أن يفعل! وقرر في النهاية أن يتوجه لأقرب مستشفى للاطمئنان على أسامة وللاعتناء بصحته، وقد قامت المستشفى لما رأت آثار التعذيب بادية على الطفل باستدعاء الشرطة التي حققت مع سيف، فأخبرهم بالعثور على أسامة ملقى على قارعة الطريق دون أية تفاصيل، ولما أفاق أسامة قال إنه لا يذكر ما حدث له أثناء فترة اختفائه، وهكذا قُيدت القضية ضد مجهول.

*****

مرت شهور منذ وقوع هذه الحادثة، وفي البداية كان سيف يشعر باضطراب شديد ولم يستطع أن يذهب للعمل عدة أيام، ثم رأى أن الوحدة ستضر بعقله أكثر مما تنفعه، فدفن نفسه أكثر في العمل، وان لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في ريم وكيف حالها الآن، إنها هناك في مكان آخر في هذا العالم لا يعلم أين، ترى ما الذي حدث لها؟

وبمرور الوقت زحفت القضية إلى مؤخرة عقله، ولم تعد تشغل باله كثيرًا كالسابق، وعاد ينهمك في عمله الروتيني، وحياته التقليدية، وفي أحد أيام العطلة قام سيف بتقليم حشائش الحديقة، وجلس على كرسي صغير يطالع جريدة اليوم، لينتبه فجأة على مواء قط صغير، فالتفت إليه ليجد قطًا أسود يقترب منه ببطء، وقبل أن يقوم بأي ردة فعل شعر بوجود شخص آخر، فالتفت ليجد فتاة صغيرة في رداء أبيض تقترب منه ببطء وهي تقول له مبتسمة:

- ألم أخبرك أننا سنلتقي؟

(تمت بحمد اللّه)

التعريف بالكاتب:

أحمد صلاح المهدي، كاتب مصري، تخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة. هو مؤلف وناقد ومترجم، متخصص في أدب الفانتازيا والخيال العلمي، وقصص الأطفال واليافعين، فكتب عدة مقالات أدبية ونقدية على المواقع العربية، ونشر عددًا من قصص الأطفال في مجلة فارس المصرية.

له روايتان منشورتان في مصر بعنوان "ريـــم" وهي من أدب الخيال الغريب و"ملاذ: مدينة البعث" من أدب ما بعد الكارثة الذي يعد فرعًا من الخيال العلمي، ورواية "الشتاء الأسود" في الأردن عن دار آمنة للنشر والتوزيع، كما نشر له قصة الأطفال "الأرنب الشجاع" عن دار أصالة بلبنان بالتعاون مع مؤسسة الفكر العربي.

نُشر له الترجمات العربية الأولى للأعمال التالية: رواية "الإله العظيم بان" للكاتب الويلزي آرثر ماكين، ورواية "الوينديجو" للكاتب البريطاني ألجرنون بلاكوود، وقصة الخيميائي لهوارد فيليبس لافكرافت.

كما ترجم رواية "النجم الأسود" من أدب الخيال العلمي لمنصة ستوري تيل للكتب الصوتية.

ساهم أيضًا ترجمة عددًا من الروايات المصورة فشارك مع مجموعة كلمات للنشر بالشارقة بترجمة عدة كتب كوميكس وهي "بطل الظل" و"اسم المستخدم إيڤي" و"القلب والعقل" و "خربشات سارة"، بالإضافة لترجمة رواية "التنين الأخير" التي نشرت على موقعيّ عرب كوميكس وبوابة الكوميكس في مصر.

الموقع الرسمي للكاتب:

http://ahmedmahdi.net

